رواء

مجلة فكرية دورية

- تلمُّس الأمل في تدافع الأمم
- هل أنتج المسلمون عمارةً إسلاميةً على مرّ العصور؟
- معركة الإرادة والدّوبامين في رمضان
- التكامل المعرفي وأثره على النهضة العلمية والحضارية

صور التفاعل مع القرآن في جلسة التلاوة

العدد الرابع عشر
رمضان ١٤٤٣ هـ
نيسان/ أبريل ٢٠٢٢

هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رَواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

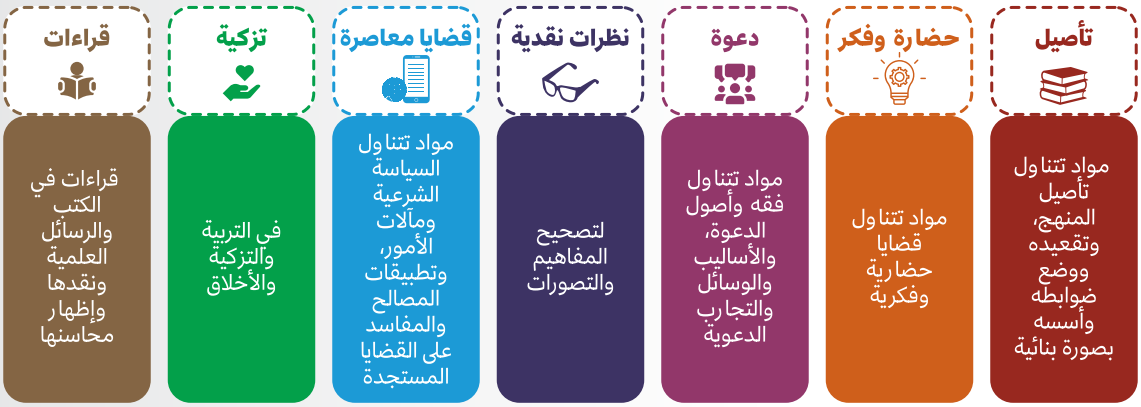

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدَّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

فهرس الموضوعات

تلمُّس الأمل في تدافع الأمم ٢

صور التفاعل مع القرآن في جلسة التلاوة ٨
د. عمر النشيواتي

هل أنتج المسلمون عمارةً إسلاميةً على مرّ العصور؟ ١٥
د. صلاح حاج إسماعيل

خواطر حول استمرار الدعوة ٢٢
أ. محمّد ياسين نعسان

معركة الإرادة والدّوبامين في رمضان ٢٧
د. وائل الشيخ أمين

التكامل المعرفي وأثره على النهضة العلمية والحضارية ٣٤
أ. يوسف العزوزي

ركائز وقواعد الطب الوقائي في الإسلام ٤٠
د. مأمون القادري

ضوابط منهجيّة وتربوية حول التعاطي مع الخلاف واحتوائه ٤٧
أ. عاصم الحايك

مشكلة النفَقَة في بيت النبوَّة ٥٤
أ. عبد المعين الطلفاح

مقاصدُ العمل التطوُّعي في الإسلام ٥٧
د. مصطفى بوهبوه

قراءة في كتاب: الإسلام والطاقات المعطّلة للشيخ محمد الغزالي ٦٤
أ. محمد مغربي

بأقلام القراء ٧٠

يُخرِجُ الحيَّ من المَيِّت ٧٢
د.خير الله طالب

مجلة رَواء
دورية فكرية تصدر كل شهرين

أسرة التحرير

د. عماد الدين خيتي
رئيس التحرير

أ. ياسر المقداد
مدير التحرير

أ. محمود درمش
سكرتير التحرير

أ. جهاد خيتي

أ. عبد الملك الصالح

التصميم والإخراج الفني
موشنات motionat
Creative Agency
motionat.com

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:
rawaa@islamicsham.org

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com
www.islamicsham.org

كلمة التحرير

تلمُّس الأمل في تدافع الأمم

مدخل:

سنَّ الله تعالى للكون سننًا لا تتغيّر ولا تتبدّل، لا يتجاوزها مؤمنٌ ولا كافر، ومن تلك السنن التدافعُ بين الإيمان والكفر، وجعْلُ الأيام دُولاً بين الحقّ تارة والباطل تارة أخرى؛ لحِكَم كثيرة، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠- ١٤٢].

ومع هذا اليقين فإنَّنا نلحظ منذ مدّةٍ طويلة صعودًا وتمكينًا لأهل الباطل، وتراجعًا مستمرًّا لأهل الحقّ، فكيف حدث ذلك؟ وهل هناك أملٌ في تغيُّر الحال؟

بداية الصعود الأوروبي:

لم يكن صعود القوى الاستعمارية في القارة الأوروبية حدثًا خارجًا عن السنن الكونية والشرعية، فهو لم يحصل إلا بعد غفلة المسلمين في الأندلس وما جاورها عن دورهم الحضاري والدعوي في العالم، وانغماسهم في الترف واللهو، وتنافسهم على الدنيا؛ الذي أدّى إلى نزاعات فيما بينهم، وكان عدوّهم المتربّص بهم يقضم من بلادهم القطعة تلو القطعة، حتى فُجِع المسلمون بسقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في غرب القارّة الأوروبية.

قامت مملكة إسبانيا -أقوى الممالك الأوروبية في وقتها- وإلى جانبها مملكة البرتغال ببناء أساطيل بحرية قويّة على أنقاض أساطيل الأندلس باحثين عن الثروات والنفوذ، وبينما كان الإسبان يستكشفون القارتين الأمريكيتين غربًا، سعيًا للوصول إلى الهند ومواطن الثروات والتوابل، كان البرتغاليون يلتفّون حول القارة الأفريقية ساعين شرقًا للوصول إلى ذات الهدف، وكانت الحملتان تحت تأييد ومباركة قيادة الكاثوليكية البابوية في إيطاليا.

رافق هذا الحِراك التوسّعي ظهورُ البروتستانتية في أوروبا، وانتشارها في بلدان الشمال الأوروبي ووصولها إلى إنجلترا التي كانت تبني قوّتها البحرية الخاصّة المنافسة للإسبان والبرتغاليين، وشيئًا فشيئًا برزت إنجلترا ومِن بعدها هولندا إلى جانب قوىً استعمارية أخرى وبدأت حروب المستعمرات تستعر بينهم في العالم الجديد.

> **لم يكن صعود القوى الاستعمارية في العالم حدثًا خارجًا عن السنن الكونية والشرعية، فهو لم يحصل إلا بعد غفلة المسلمين عن دورهم الحضاري، وانكفائهم الثقافي والعلمي، وانغماسهم في الترف واللهو، وتنافسهم على الدنيا؛ الذي أدّى في النهاية إلى نزاعات فيما بينهم**

حال المسلمين:

أمّا في المشرق الإسلامي فقد كانت دول المسلمين -على قوّة بعضها- متفرّقة متباعدة، مع تراجع المنحنى الحضاري للمسلمين، ولعلّ أبرز مظاهره: الانكفاء والجمود الثقافي الذي تمثّل في إغلاق باب الاجتهاد الفقهي، وتباطؤ الحركة العلمية التي كانت في أوجها أيام العباسيين في المشرق والأمويين في الأندلس، وكان الأخذ بالأسباب المادّية والاكتشافات العلمية قد توقّف إلى حدٍّ كبير في مقابل التقدُّم السريع في السيطرة وامتلاك مقاليد القوّة لدى الأوروبيين.

وبعد أن كان المسلمون القوّة العظمى والأكثر تقدّمًا، صاروا شيئًا فشيئًا دولةً قويّة تعاني من الشيخوخة، يزاحمها عددٌ كبير من الدول الفتية الباحثة عن النفوذ والثروة والسيطرة.

النظام العالمي وأثره على المسلمين:

فيما بعد تصارعت القوى الاستعمارية الناشئة على النفوذ في حربين عالميتين في النصف الأول من القرن العشرين بكلّ ما أوتيت من قوة وبأس، وخلّفت دمارًا عظيمًا لم تعرفه البشرية قطّ، وكان من نتائجها: تمزُّق العالم الإسلامي إلى دويلاتٍ محتلّة مِن قِبَل هذه القوى، وفرضت القوى المنتصرة على العالم نظامًا قائمًا على مراعاة الأقوياء واستنزاف الضعفاء، غابت معه شمس العدالة عن وجه الأرض بعد أن نعمت به لقرون.

كان للهزيمة التي لحقت بالمسلمين أثرٌ كبيرٌ في نفوس الناس؛ ففضلاً عن التأثير النفسي للهزيمة.. حصل ما يُعرف بتأثير الغالب على المغلوب، ففُتن كثير من المسلمين، وظنّوا أنّ طريق الخلاص والنهوض من جديد يكمن في متابعة الغرب المستعمر والتعلّق بما جاء به من أفكار ومبادئ بديلة عن الإسلام كالقومية والاشتراكية والعَلمانية والرأسمالية وغيرها، وحتى عندما جلا المستعمر عن بلاد المسلمين ابتُلي المسلمون بقيادات شكلية ظنَّ الناس فيهم الصدق، وتأمَّلوا منهم العمل على النهوض وإعادة الأمّة إلى سابق وحدتها وعزّتها، فإذا بهم دميً وعرائس تأتمر بأمر أسيادها المستعمرين، وتُعطيهم خيرات البلاد ومقدَّراتها، ولا تستجلب منهم إلا أسوأ ما لديهم؛ فتبيَّن أنّ حال الدول الإسلامية بعد جلاء المستعمر لا يعدو كونه صورةً من صور الاستعمار الخفيّ لكن بستار محلّي، واستمرَّ العبث بالأقطار الإسلامية احتلالاً وتقسيمًا ونهبًا للثروات، واستقطابًا لتحالفاتهم، وتدخّلاً في كلّ شاردةٍ وواردة من شؤونهم.

> **أدرك المصلحون مبكّرًا أنَّ الحال الذي وصلت إليه الأمّة هو نتيجة حتمية للمقدِّمات التي سبقتها بمدّة ليست قليلة، وعلموا أنّ عودة الأمّة إلى سابق عزّها ومجدها لا يكون إلّا بالعودة إلى المنبع الصافي الذي صلح عليه أمر الأمّة أوّلاً، فتداعوا في كلّ بلد للإصلاح على قدر استطاعتهم**

جهود الإصلاح:

أدرك المصلحون مبكّرًا أنَّ الحال الذي وصلت إليه الأمّة هو نتيجة حتمية للمقدِّمات التي سبقتها بمدّة ليست قليلة، وعلموا أنّ عودة الأمّة إلى سابق عزّها ومجدها لا يكون إلّا بالعودة إلى المنبع الصافي الذي صلح عليه أمر الأمّة أوّلاً، فتداعوا في كلّ بلد للإصلاح، تارةً بالعمل السياسي وتارةً بالعمل الخَدَمي، وقامت حركةٌ علميةٌ دعوية شاملة، تتَّسع كلّما أتيح لها المجال وسنحت الفرص.

قابل وكلاءُ الاستعمار هذه الحركات بالتضييق، وقمعوها بالترهيب؛ فانتهى الحال بأغلب قادتها ورموزها في المعتقلات والزنازين وأقبية التعذيب. واستخدموا معها في بعض الأحيان أسلوب الترغيب والاحتواء، فمنحوها مشاركة سياسية رمزية، من خلال مناصبَ ومواقعَ شكليةٍ محدودة التأثير لتُفقدها رصيدها الجماهيري.

المزيد من حُلكة الليل:

عامًا بعد عام ازدادت الأنظمة الحاكمة للبلاد الإسلامية ارتماءً في أحضان القوى الاستعمارية، وبُعدًا عن تحرير الأوطان السليبة، وزادت بينها

العداوات بعد أن كانت تنادي -ولو شكلاً- بالاتحاد والوحدة والتعاون، ومن جانب آخر كان لدعم المستعمرين لطوائف الأقلّيات على حساب الأكثرية السنّية آثارٌ مدمّرة في العديد من المحاور الحيوية في البلدان الإسلامية.

وبعد تفريط الأنظمة الحاكمة للبلاد الإسلامية بفلسطين، في سلسلة من الخيانات في الحروب التي خاضوها مع الكيان المحتلّ، ثم الرضوخ للاتفاقيّات الدولية ومعاهدات السلام التي اعترفوا فيها بحقّ العدوّ في الأرض؛ انتهوا إلى التطبيع الكامل معه، والذي تُجرّم فيه مقاومة المحتل! وتفتح له الأبواب ليحصل على الثمين من الامتيازات والعقود في بلاد المسلمين.

وعلى الصعيد الثقافي: دأبت هذه الأنظمة على تغييب الشعوب عن هويتها وانتمائها، وكرّست في المقابل هويّة مشوَّهةً خاصّة بكلِّ قُطرٍ على حدَة، وبتاريخ مجتزأ لكلٍّ منها.

أما الاقتصاد فحدّث ولا حرج عن التدهور الذي مُنيت به الدول الإسلامية، في نِسَبِ التضخّم، ومعدّلات البطالة، والديون التي غرقت فيها، واحتكار الثروات لدى الطُغَم الحاكمة، وارتهان اقتصاداتها للدول الكبرى، وهلمّ جَرًّا.

بصيص أمل موؤود:

هذه التبعية المقيتة، بآثارها الوخيمة في السياسة والاقتصاد والدين والحياة الاجتماعية؛ أورثت إحباطًا وغَضَبًا غير مسبوق لدى الشعوب المسلمة، فقامت ثورات عارمة في عدد من الدول العربية، وبالرغم من بعض النتائج المهمّة التي جُنِيَت سريعًا، فقد مارست الأنظمة الحاكمة وحلفاؤها بطشًا غير مسبوق في مواجهتها، وكأنّها وجُيوشَها قد أُعدَّت لهذا اليوم، وتواطأ بعضها في دعم بعض حتى ظهر ما يُعرف بالثورات المضادّة التي جاءت بحكومات أشدَّ ظلمًا، وأكثرَ انبطاحًا وتطبيعًا مع المحتلّ.

وكان لسوريا النصيب الأكبر من هذا البطش على يد النظام الطائفي المجرم، الذي لم يتوانَ عن استخدام أعتى الأسلحة وآلات الدمار في مواجهة الشعب الثائر المطالب بالحرّية والكرامة، وكان الملفت والصادم لكثير من المراقبين: تدخّل عدّة دول بجنودها وعتادها لقمع ثورة الشعب الأعزل، من بينها قوىً عظمى، ضمن تفاهمات مع بقية الدول الكبرى، الأمر الذي عرّى حقيقة النظام العالمي وأظهر تواطؤ المجتمع الدولي على وأدِ أحلام الحرّية للشعوب المسلمة، مما زاد الصورة قتامة والليل حلكة.

حالة اليأس:

الظلم المتواصل والبطش المستمرّ والتردّي الاقتصادي والتعليمي والصحّي تسبّب في موجة كبيرة من اليأس والإحباط، خصوصًا بعد انسداد الأفق، وانتهاء الثورات إلى سبلٍ مسدودةٍ بين حلول سياسية مُجحفة، وواقع إنساني مأساوي.

وكانت الهجرة إلى الغرب سبيلاً فكّرت به شرائح واسعة من الناس، لكن تبيّن مع الوقت أنّ الطريق ليس مُزيّنًا بالورود، بل دون ذلك مفاوز ومهالك، قد تنتهي بالغَرق أو القتل بأيدي خفر السواحل، أو الاحتجاز داخل معسكرات مُهينة، ومَن يصل منهم لا يأمن على أولاده وأسرته من التفريق أو الإفساد، ومؤخّرًا صارت بعض هذه الدول تتّجه نحو ترحيل اللاجئين بدعاوى مختلفة.

في المحصّلة تواجه الشعوب المسلمة مزيجًا معقّدًا من عدّة عوامل تجعل الأفق مسدودًا في وجهها، تتمثل في التوافق الدولي على حماية نفوذ الدول الكبرى وتصدير مشكلاتها إلى الدول الأضعف، ومنع انبعاث المسلمين من جديد بأدواتهم السياسية والعسكريّة والاقتصاديّة والثقافيّة، وطوابيرهم وجنودهم الذين يملؤون بلادنا، إلى جانب فساد وظلم الأنظمة، وسوء إدارتها للبلاد، وإغراقها في أوحال التخلّف والفوضى، بالإضافة إلى عجز الشعوب بإمكاناتها الذاتيّة عن تفكيك هذه القيود المتضافرة والمتراكبة.

> **في الأحوال التي ينسدُّ فيها الأفق، ولا يبقى لدى البشر ما يبذلونه بتدبيرهم، يأتي التدخُّل الإلهي بسُننه التي لا تتخلَّف، وقدرته التي لا يُعجزها شيء، ومنها الفرج بعد الشدَّة**

الفرج بعد الشدة:

في مثل هذه الأحوال التي ينسدُّ فيها الأفق، ولا يبقى لدى البشر ما يبذلونه بتدبيرهم، يأتي التدخُّل الإلهي بسُننه التي لا تتخلَّف، وقدرته التي لا يُعجزها شيء، ومنها الفرج بعد الشدَّة، قال تعالى:

من السنن الباعثة على الأمل في واقعنا اليوم

سنة الفرج بعد الشدة | سنة المداولة | سنة التدافع

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢١٤]، قال ابن كثير: «يستفتحون على أعدائهم، ويدعون بقُرب الفَرَج والمخرج عند ضيق الحال والشدّة، قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ كما قال: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦]، وكما تكون الشدَّة ينزل من النصر مثلها؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾، وفي حديث أبي رَزين: (عَجِبَ ربك من قُنوط عباده وقُرب غيثه، فينظر إليهم قنطين، فيظلّ يضحك، يعلم أنّ فرجهم قريب) الحديث»[١].

وقال الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: ١١٠] قال السعدي في تفسيرها: «حتى إنَّ الرسلَ -على كمال يقينهم، وشدَّة تصديقهم بوعد الله ووعيده- ربّما أنّه يخطر بقلوبهم نوعٌ من الإياس، ونوعٌ من ضعف العلم والتصديق، فإذا بلغ الأمر هذه الحال ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ وهم الرسل وأتباعهم»[٢].

وقال سيد قطب: «في هذه اللحظة التي يستحكم فيها الكرب، ويأخذ فيها الضيق بمخانق الرسل، ولا تبقى ذرّةٌ من الطاقة المدَّخرة.. في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسمًا فاصلاً: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾»[٣].

> **من سنن الله تعالى سنّة المداولة، فالدنيا لا تدوم على حال، ومن كان يتصوَّر أنَّ النظام العالمي المنعقد اليوم لا يتزعزع ولا ينحلّ فقد خالف السنن الكونية والقدرية**

سنّة المداولة:

ومن سنن الله تعالى سنّة المداولة، فالدنيا لا تدوم على حال، والعُسر يعقبه اليُسر، والشدّة يعقبها الفَرَج ولو بعد حين، والله لا يُعجزه شيء، وله حِكم بالغةٌ في رفع أقوام ووضع آخرين؛ قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦]، ومن كان يتصوَّر أنَّ

(١) تفسير ابن كثير (٥٧٢/١).
(٢) تفسير السعدي، ص (٤٠٧).
(٣) في ظلال القرآن (٢٠٣٦/٤).

النظام العالمي المنعقد اليوم لا يتزعزع ولا ينحلّ فقد خالف السنن الكونية والقدرية، فقد جاء في الحديث قوله ﷺ: (حَقٌّ على اللهِ أن لا يَرْتَفِعَ شيءٌ مِن الدُّنيا إلّا وضَعَهُ)[1].

وقد تجبَّر في السابق أقوام فَمَحَقَهم الله ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]، كما مكّن قومًا كانوا مستضعفين فآتاهم الملك في الأرض المباركة ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]، وهكذا يحوِّل الله السيادة والزعامة في الأرض من قومٍ إلى قوم، لإظهار قُدرته النافذة وحكمته البالغة وتدبيره المحكم.

وهذه السنّة صرَّح بها الله في قوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠] قال السعدي: «فيُداول الله الأيام بين الناس، يومٌ لهذه الطائفة ويومٌ للطائفة الأخرى؛ لأنَّ هذه الدار الدنيا منقضيةٌ فانية، وهذا بخلاف الدار الآخرة، فإنّها خالصةٌ للذين آمنوا»[2]، وهذا مما يبعث على الأمل والتفاؤل، ويدفع نحو العمل والتضحية.

سنّة المدافعة:

وسنّة المدافعة قريبة من سنّة المداولة، وفيها يتجلّى لنا كيف أنَّ الله يدفع بعض الأمم ببعض، فتكون المداولة بينها بالتدافع والمغالبة، فتنتصر أمّة ثم تدافعها أمّة أخرى، حتى تُزيحها عن سدَّة السيطرة والغلبة فتحلَّ محلَّها، وهذا مُشاهد معلوم يُدركه كلّ أحد.

ومدافعة الكفّار تحصل بأيدي المؤمنين كما نصرَ ربّنا تبارك وتعالى طالوتَ وجنوده على جالوت، ونصرَ النبيَّ ﷺ وأصحابَه يوم بدر ويوم الفتح، ونصرَ أهل الإسلام في القادسية واليرموك وسائر الفتوحات التي سجّلها التاريخ.

وقد يُضعِف الله بعض الكفار بضرب بعضهم ببعض، وهذا أمثلته كثيرةٌ في التاريخ، ومنها ما وقع في زماننا هذا، كحروب المستعمرات والحربين العالميتين والحرب الباردة وغيرها، قال ابن زيد رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩] معناه: «نسلِّط بعض الظلمة على بعض، فيهلكه ويُذلُّه»[3]. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] قال ابن كثير: «لولا أنَّه يدفع عن قومٍ بقوم، ويكشف شرَّ أناسٍ عن غيرهم بما يخلقه ويقدّره من الأسباب؛ لفسدت الأرض، وأهلك القوي الضعيف»[4]. فلو تَركَ الله القويَّ من البشر يأكل الضعيف ولم يكن للضعيف عودة؛ لاستمرَّ الأقوى، وهلك الأضعف إلى الأبد[5].

> **من حِكَم السنن الكونية تبدُّل موازين القوى، وانفراج الأمر على الضعفاء، فلو تَركَ الله القويَّ من البشر يأكل الضعيف ولم يكن للضعيف عودة؛ لاستمرَّ الأقوى، وهلك الأضعف إلى الأبد**

حِكَمٌ خَفِيَّةٌ في المداولة والتدافع:

ولهذه السُّنن حِكَمٌ كثيرة؛ منها تعلُّق العباد بالله القويِّ القادر على كلِّ شيء، الذي لا يغلبه أحد، ومنها عدم انبهار الناس بقوة أمَّةٍ من الأمم أو سلطانها وسطوتها ومن ثمَّ تقليدها واتباعها؛ فكلُّها إلى زوال، وفيها من عوامل الفناء ما فيها، ومنها بقاءُ الأمل حيًّا في النفوس وعدمُ استسلام الناس لليأس تحت ظُلم الظالمين وبطش الطغاة، واندفاعُهم للعمل فيما يُصلح دنياهم وآخرتَهم، إلى غيرها من الحِكم الكثيرة والعِبَر الغزيرة.

إضاءة على الواقع اليوم:

بالرغم من التوافقات الدولية المبرمة بين الدول الكبرى تحت مظلّة المنظّمات الأممية إلا أنَّ نارًا مستعرة تحت رمادها تومض كُلَّما برزت أزمة أو مشكلة، فهذه الدول تبقى دولاً استعمارية يدفعها الجشع ويحرّكها حبُّ النفوذ، ومَن كانت هذه حالهم فأنت ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤]، هذا فضلاً عن سنن المداولة

(١) أخرجه البخاري (٢٨٧٢).
(٢) تفسير السعدي، ص (١٤٩).
(٣) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: (٨٥/٧).
(٤) تفسير ابن كثير (٤٣٥/٥).
(٥) دورة سنة التدافع والتمكين للشيخ المنجد على موقعه.

والتدافع التي تقتضي تغيّر الحال وتقلّب الأمم في مواقع الصدارة والتبعية.

فالولايات المتحدة ليست في أحسن أحوالها الاقتصادية والسياسية، وتراجعها العسكري ظاهر منذ ما يقرب من عقدين، والاتحاد الأوروبّي انكشف ضعفه العسكري مؤخّرًا وأنَّ أعضاءه دأبوا على التخفيف من ميزانيات الإنفاق العسكري معتمدين على حماية الولايات المتحدة، والأمور ليست على وفاق تام داخل حلف الناتو، فثمّة تفاهمات أمريكية بريطانية لا تدخل فيها فرنسا، بل تتضارب مصالحهم بشكل جليّ بين الفينة والأخرى. أما الدور الفرنسي فهو يشهد أزمة وتراجعًا عالميًا، خصوصًا في أفريقيا التي باتت تزاحمها فيها قوىً أخرى مثل الولايات المتحدة وروسيا والصين وغيرها. والتصدُّرُ التكنولوجي والصناعي الصيني على حساب الهيمنة الأمريكية والأوروبية بات يشكل قلقًا لساسة هذه الدول وقادتها، والتوتّر في بحر الصين الجنوبي بلغ مداه في الأعوام الأخيرة، والعالم بات يترقّب غزوًا عسكريًّا صينيًّا لتايوان التي تقع تحت الحماية الأمريكية.

وروسيا تُعيد تقديم نفسها منذ مدّة قوةً ذات نفوذ ومصالح في القوقاز ووسط آسيا والشرق الأوسط وأفريقيا، ومؤخّرًا ظهر التدافع بأجلى صوره مع الحرب الروسية الأوكرانية التي تمثّل أول حالة حرب أوروبية بعد الحرب العالمية الثانية، وتداعياتُها بدأت تؤثّر على العالم كلّه بارتفاع أسعار النفط والغذاء وغيرها، خصوصًا مع توقّعات توسُّع هذه الحرب خارج حدود أوكرانيا، ويزيد من خطورة هذه التوقّعات التلويح المتكرّر باستخدام أسلحة الدمار الشامل من قِبَل الروس وخصومهم.

(١) تقرير (عالم جديد يولَد تحت النيران في أوكرانيا) على موقع عربي بوست.

> **من حكم السنن الكونية بقاءُ الأمل حيًّا في النفوس، وعدمُ استسلام الناس لليأس تحت ظُلم الظالمين وبطش الطغاة، واندفاعُهم للعمل فيما يُصلح دنياهم وآخرتهم**

الخلاصة:

بعد أحد عشر عامًا من انطلاق الربيع العربي نجد أنَّ العالم قد تغّير عمّا كان عليه قبل هذه الأحداث، وروسيا التي أحرقت الأخضر واليابس في سوريا متورّطة اليوم في حربٍ شرسةٍ لا تملك حسمها، ولا تقبل الانسحاب منها، وقد طالتها العقوبات الاقتصادية. وبقيّة الدول الكبرى لديها من المشكلات مع بعضها وفي داخلها ما يُضعفها، وأذنابهم من حكومات بلاد المسلمين في أضعف حالاتهم أيضًا، كلّ هذا يفيد بأنّنا على وشك أن نشهد ميلادَ نظامٍ عالميٍّ جديد، كما صرّح بذلك عدد من قادة وسَاسة العالم[١].

وما دام الله قد تكفّل لهذا الدين بالنصر والتمكين، فلا بدّ لهذا النصر أن يتحقّق، ولا بدّ للأمّة أن تظهر من جديد، شاء من شاء وأبى من أبى ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨]، لكن دون ذلك بذل الأسباب؛ فقد وعد الله المؤمنينَ بالنصر والتمكين بشرط القيام بأمر الله كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، فمن أراد النصر والتمكين فعليه أن يسلك مسالكهما وشروطهما.

صور التفاعل مع القرآن في جلسة التلاوة

د. عمر النشيواتي(*)

القرآن كتاب عظيم أنزله الله ليَسعد به البشر، وتُضاء بنوره قلوبهم، وتسمو بهداياته أرواحهم، من رُزق فهمه وتدبُّره فقد أوتي خيراً كثيراً، ولسائل أن يسأل: ما السبيل الأمثل للحصول على هدايات القرآن وكنوزه ودرره؟ وكيف يتفاعل التفاعل المنشود مع هذه المنحة الربانية؟ يقدم المقال إضاءات حول هذه الأسئلة

يقصُر البعض منافع جلسة تلاوة القرآن على قراءة ورده، فيجعل منها مجرَّد جلسة يعُدُّ فيها الصفحات والسور والأجزاء، ويسابق فيها الزمن وعينه على آخر السورة أو الورد، وأقصى همِّه الاستزادة من الأحرف ليكونَ له بكلِّ حرفٍ حسنة، ومع أن الإكثار من التلاوة مقصدٌ شرعيٌّ أصيل لقراءة القرآن، لكنَّ الموفَّق من استزاد؛ فجعل من جلسة تلاوة القرآن محطةً إيمانيةً فريدةً يغذي فيها روحه وعقله وجوارحه، وكلما تقدم به الزمن تمرَّس وتدرَّب على مهاراتٍ وطرائقَ تنمو معه شيئًا فشيئًا حتى ترتقي به، فيكون لجلسة التلاوة طابعها الخاص الذي يُميِّزها عن غيرها، ثم لا يكاد يروي ظمأه إلا ذلك النوع من الجلسات.

لن يكون الحديث في هذه المقالة عن أثر القرآن وثمرة تلاوته، إنما سيتركَّز حول صور التفاعل مع القرآن أثناء جلسة التلاوة أو الاستماع، وتشمل صور التفاعل ثلاثة جوانب رئيسية وهي: القلب والعقل والجوارح، وقد جاء ذكر تلك الجوانب مجتمعة في آية واحدة مبيِّنةً أنَّ حصول الذكرى من القرآن إنما يكون باستحضار القلب وإلقاء السمع وإمعان النظر وإعمال العقل، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

قال ابن كثير: «﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أَيْ: لُبٌّ يَعِي بِهِ، وقال مُجاهِدٌ: عَقْلٌ ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أَيِ: استَمَعَ الكَلامَ فَوَعاهُ، وَتَعَقَّلَهُ بِقَلْبِهِ وَتَفَهَّمَهُ بِلُبِّهِ»[1]، وقال ابن القيم: «إذا أردتَ الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه، وألقِ سمعك، واحضر حُضور من يخاطبه به من تكلَّم به سبحانه منه إليه، فإنه خطابٌ منه لك على لسان رسوله ﷺ»[2].

(*) طبيب، وكاتب مهتم بالقرآن وعلومه.

(١) تفسير ابن كثير (٤٠٩/٧).

(٢) الفوائد، لابن القيم، ص (٣).

الموفَّق من جعل من جلسة تلاوة القرآن محطةً إيمانيةً فريدةً يغذي فيها روحه وعقله وجوارحه، وكلَّما تقدم به الزمن تمرَّس وتدرَّب على مهاراتٍ وطرائقَ تنمو معه شيئًا فشيئًا حتى ترتقي به، فيكون لجلسة التلاوة طابعها الذي يُميِّزها عن غيرها، ثم لا يكاد يروي ظمأه إلا بها

وفيما يأتي مزيدٌ من التناول فيما يتعلق بهذه الأعضاء:

١. القلب:

القلبُ مَلِك الأعضاء وسيدها، وهو جوهر المؤمن؛ فالإيمان ينبع من القلب، وكما أنَّ تدبُّر القرآن يُصلح القلبَ ويُزكِّيه فكذلك لا يَنتفعُ بالقرآن إلا صاحب قلبٍ سليم، وزكاء القلب يُرى أثرُهُ على باقي الأعضاء، وبتحرُّك القلب وتفاعُلِه تنقدح في العقل أنوار الهدى والمعرفة وتفيض على الجوارح مشاعر اللين والخشوع والسكينة، وبقدر ما يُجاهد تالي القرآن نفسه في قراءة القرآن بقلبه لا بلسانه فحسب، يعظُم الأثر في إصلاح قَلبه بتخليته من الأمراض والشبهات والشهوات، ثم بتحليته بمعاني الإيمان والحبِّ والتوكُّل والخوف والرجاء وحصول الهداية به؛ فهو ﴿هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

قال ابن القيم: «القرآن حياةُ القلوب، وشفاءٌ لما في الصدور ... فبالجملة لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبُّر والتفكُّر ... وهذا الذي يُورث المحبَّة، والشوقَ، والخوفَ، والرجاءَ، والإنابةَ، والتوكُّلَ، والرضا، والتفويض، والشكر، والصبر، وسائرَ الأحوال التي بها حياةُ القلب وكمالُه، وكذلك يزجرُ عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبُّر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها»[(١)].

وللقرآن مع القلب شأنٌ خاصٌّ حكاه القرآن جليًّا في عدّة مواطن يحسُن بتالي القرآن تمثُّلها أثناء تلاوته، وبها يَستدِلُّ المرءُ على حُسن انتفاعه بكتاب الله منها:

* **اللينُ لسماع كتاب الله**، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

* **سببٌ لزيادة إيمانه**، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

* **حصول الطمأنينة**؛ فقلب المؤمن هو قلب مطمئن بذكر الله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، والطُّمأنينة اعتدالٌ وسكون، فطُمأنينة الأعضاء معروفة، وطمأنينة القلب هي أن يسكُن ويستأنس بتوحيد الله.

* **الخشوع لذكر الله**؛ بأن يلين ويخضع ويذل وينقاد لأمر الله، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، يقول مصطفى صادق الرافعي في ظلال هذه الآية: «هذه الكلمة حثٌّ وإطماعٌ وجدالٌ وحُجّة، والآية تُصرِّح أنَّ خشوع القلب الذي تلك صفتُه هو كمالٌ للإيمان، وأنَّ وقت هذا الخشوع هو كمال العُمر، وكيف يعرفُ المؤمن أنه سيأتي له أن يعيش ساعةً أو ما دونها؟! ... ومتى خشع القلب لله وللحقّ عظُمت فيه الصغائر من قوة إحساسه بها، فيراها كبيرةً وإن عمي الناس عنها، ويراها وهي بعيدةٌ منه بمثل عين العقاب: يكون في لوح الجو ولا يغيب عن عينه ما في الثرى»[(٢)].

* **الوجل عند تلاوته**؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، والوَجَلُ: استشعار الخوف، وذلك الوجل هو صفة المُخبتين أصحاب القلوب السليمة، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ۝٣٤ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٤-٣٥]، وإخبات القلوب: يكون «بالانقياد والخشية للقرآن على التخصيص، وللرب على التعميم»[(٣)].

* **تحقُّق التقوى بتلاوته**، قال تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨]،

(١) مفتاح دار السعادة، لابن القيم (١/١٨٧) بتصرف.
(٢) وحي القلم (١/١٩٦-١٩٧).
(٣) روح المعاني، للألوسي (١٧/١٧).

والتقوى كنزٌ عزيزٌ مَن ظفرَ به فقد وجد خيرًا عميمًا، ورزقًا كريمًا، وغُنمًا جسيمًا، ومُلكًا عظيمًا، وعليه مدار القَبول، وبه وصّى سبحانه الأولين والآخرين.

> **القلب الطاهر لا يشبع من القرآن ولا يتغذَّى إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته لكمال حياته ونوره وتخلُّصه من الأدران والخبائث، بخلاف القلب الذي لم يُطهِّره الله تعالى فإنَّه يتغذَّى من الأغذية التي تناسبه؛ كالبدن العليل المريض، لا تُلائمه الأغذية التي تُلائم الصحيح**

وعلى النقيض من ذلك فإنَّ **ترك انتفاع القلب بالقرآن** علامة فتنة الله للمرء وعدم إرادة التطهير له، يقول ابن القيم عند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١]: «فهؤلاء وإخوانهم من الذين لم يُرِد الله أن يطهِّر قلوبهم، فإنَّها لو طَهُرت لما أعرضت عن الحق، وتعوَّضت بالباطل عن كلام الله تعالى ورسوله ﷺ، كما أنَّ المنحرفين من أهل الإرادة لمّا لم تطهُر قلوبهم تعوَّضوا بالسماع الشيطاني عن السماع القرآني الإيماني، قال عثمان بن عفان ﷺ: «لو طهرت قلوبنا لما شبِعتْ من كلام الله»[1] فالقلب الطاهر لكمال حياته ونوره وتخلُّصه من الأدران والخبائث لا يشبع من القرآن ولا يتغذَّى إلا بحقائقه، ولا يتداوى إلا بأدويته، بخلاف القلب الذي لم يُطهِّره الله تعالى فإنَّه يتغذَّى من الأغذية التي تناسبه ... كالبدن العليل المريض، لا تُلائمه الأغذية التي تلائم الصحيح.

ثم إنَّ **موت القلب وقسوته** محلُّ ذمٍّ ووعيد من الله تعالى، وعلامة فسوق وضلال مبين، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦]، وقال سبحانه متوعدًا أصحاب القلوب القاسية من ذكر الله: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الزمر: ٢٢].

وما **صرف القلب عن تدبُّر القرآن** والعيش معه إلا بما كسب الإنسان من معصيةٍ أو كبيرةٍ أو زيغ أو كفر، قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧].

كما أنَّ من أعظم أسباب صرف القلب عن تدبُّر القرآن والإعراض عنه وعدم العمل بما فيه اللهو، وهو كل ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويُهمه، وهو سهوٌ وإعراضٌ وتشاغلٌ وذهولٌ وغفلةٌ عن الحق، وقد جاء اللهو مقترنًا بالقلب في الاستعمال القرآني في قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢-٣].

٢. الجسد:

للجسد نصيبُه الخاص به من كتاب الله كما أنَّ للقلب والعقل حظَّه منه، فتفاعل الجسد مع التلاوة يزيد القلب والعقل إشراقًا وزكاءً، كما أن تأثر القلب ينعكس على الجسد في صور مختلفة حكاها القرآن نذكر منها ما يلي:

أ. العين:

فمن صور تفاعلها البكاء من خشية الله تعالى، فقد حكى القرآن حال أهل العلم عندما يُتلى عليهم كتاب الله أنّهم: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩]، وجاء في صفة أهل الإيمان من النصارى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقرأ عمر بن الخطاب سورة مريم فسجد عند قوله: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨] وقال: «هذا السجود، فأين البكيّ؟» يريد: فأين البكاء[2].

ومن صور التفاعل المختصّة بالعين النظر للسماء أو الأرض أو الشجر أو الإبل أو البحر أو الكعبة والحرم عند ذكر شيء منها أثناء التلاوة في

(١) إغاثة اللهفان، ص (٦٣-٦٤).
(٢) تفسير الطبري (١٥/٥٦٦).

غير الصلاة، وذلك بالقدر الذي يزيد القارئ تدبُّرًا وتصوُّرًا لما يتلوه وبما لا يشغل عن التلاوة، وذلك استجابة لقوله سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق: ٥]، وقوله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠]، وقد ورد عن السلف فعل شيءٍ من ذلك دون مبالغة، من ذلك ما ورد عن ابن عباس ﷺ قال: «بِتُّ عند خالتي مَيْمُونَةَ، فَتَحَدَّثَ رسول الله ﷺ مع أهلِهِ ساعةً ثُمَّ رَقَدَ، فلمّا كان ثُلُثُ الليلِ الآخِرُ قَعَدَ فنظرَ إلى السماءِ، فقال: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

> **التمرُّسُ على قواعد الترتيل مما يُعين على التدبُّر ويزيد التلاوة جلالاً وجمالاً، كما أنَّ التغنّي بالقرآن وتزيين الصوت به والقراءة بالحدر أو الترتيل تفاعلاً مع الآيات والمعاني! أو التأنّي والترسُّل أثناء القراءة وترديد الآية..كلُّه مما يزيد القارئ تفاعلاً أثناء جلسة التلاوة**

ب. اللسان:

تصفُ حفصة أم المؤمنين قراءة رسول الله ﷺ فتقول: «... وكانَ يَقْرَأُ بالسُّورَةِ فيُرَتِّلُها حتّى تَكُونَ أطوَلَ مِن أطوَلَ منها»[١]، وقال ابن القيم: «وهذه كانت عادة السلف يردد أحدهم الآية إلى الصباح»[٢] ولا شكَّ أن تمرُّسَ القارئ على قواعد الترتيل مما يُعين على التدبُّر ويزيد التلاوة جلالاً وجمالاً، كما أنَّ التغنّي بالقرآن وتزيين الصوت به والقراءة بالحدر أو الترتيل تفاعلاً مع الآيات والمعاني! أو التأنّي والترسل أثناء القراءة وترديد الآية ...كلُّه مما يزيد القارئ تفاعلاً أثناء جلسة التلاوة.

ومن صور تفاعل اللسان **رفعُ الصوت وخفضُه** وتغيير القارئ نبرته بحسب المعنى، فقد استحبَّ بعض العلماء خفض الصوت عند مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤] ونحوها من مقالات الكفار كادّعاء الولد، وأن الله ثالث ثلاثة، يروى هذا عن النخعي وغيره، وهذا من كمال التأدب مع الله، لشناعة مثل هذه المقولات.

(١) أخرجه مسلم (٧٣٣).
(٢) مفتاح دار السعادة، لابن القيم (١٨٧/١).

ومن صور تفاعل اللسان: **التأمين عند آيات الدعاء** سواء في الفاتحة أو غيرها، واستحضار القلب باستخدام اللفظ القرآني الوارد على لسان الأنبياء والصالحين من أدعيتهم، فذلك أرجى للقبول، كدعاء إبراهيم في سورة إبراهيم وغيرها، ومناجاة الراسخين في العلم في فاتحة آل عمران، وابتهالات أولي الألباب في أواخر آل عمران وهو كثير في كتاب الله.

ومِن تفاعل اللسان **الاستجابة للمعنى القرآني** بما يناسبه؛ وذلك بذكر الله عند قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وبالتسبيح عند قوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٢]، وبالاستغفار عند قوله: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦]، وبالتسبيح عند قوله: ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ [الإسراء: ١٠٨]، وبالحمد عند قوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، وسؤال الله الجنة والاستعاذة به من النار عند ذكرهما، فهذا من التفاعل المحمود مع القرآن الكريم، بل قد عاتب النبي ﷺ الصحابة على سكوتهم حينما سمعوا سورة الرحمن، فقال لهم: (لقد قرأتُها على الجِنِّ ليلةَ الجِنِّ فكانُوا أحسنَ مَرْدُودًا منكم؛ كنت كلَّما أتيتُ على قولِهِ: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا بِشَيءٍ مِن نِعَمِكَ رَبَّنا نُكَذِّبُ، فلكَ الحَمدُ)[1].

أخرج مسلم عن حذيفة ﷺ قال: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة. فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة! فمضى، فقلت: يركع بها! ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها. يقرأ مترسلاً، إذا مر بآية فيها تسبيحٌ سَبّحَ، وإذا مر بسؤالٍ سألَ، وإذا مر بتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ»[2].

ومن صور تفاعل اللسان **مخاطبة النفس ومحاسبتها** وتأنيبها ولومها ووعدها بالخير وأخذ العهود عليها عند تلاوة ما يناسب ذلك من ذكر أوصاف أصحاب اليمين أو النفس اللوامة أو أحوال النفوس وغيرها، من ذلك عتاب عمر بن الخطاب نفسه حين قرأ آية السجدة في سورة مريم وقال: هذا السجود، فأين البكيّ؟

ج. السجود:

من التفاعل مع آيات القرآن سجود التلاوة؛ وقد جاءت السنة المتواترة فيه وفعله السلف في مواضع مخصوصة ذكرها الفقهاء والقراء، ويُستحب داخل الصلاة وخارجها، كالسجود عند قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]، وقوله: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

والسجود عند سماع القرآن عمومًا هو صفة أهل العلم والإيمان قال تعالى: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧]، وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: «قرأ رسول الله ﷺ وهو على المنبر (ص)، فلما بلغ السجدة نزل فسجد وسجد الناس معه، فلما كان يوم آخر قرأها، فلما بلغ السجدة تشزَّنَ الناسُ للسجود، فقال رسول الله ﷺ: (إنما هي توبة نبي، ولكني رأيتكم تشزَّنتم للسجود) فنزل فسجد وسجدوا»[3].

> **«تأثُّر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوَّة: فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءَل من خيفته كأنَّه يكاد يموت، وعند التوسُّع ووعد المغفرة يستبشر كأنَّه يطير من الفرح، وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعًا لجلاله واستشعارًا لعظمته...»**
>
> **الإمام الغزالي رحمه الله**

د. الوجه والجلد:

من صُور التفاعل التي تحصُلُ بقدر تدبُّر القارئ وتفاعل عقله وقلبه مع ما يقرأ.. ما يحصلُ في الوجه من الاستبشار بالقرآن ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤] والفرح بكتاب الله وعند ذكر النعيم ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، والحزن والتمعّر عند الحديث عن النار ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧]، والخوف عند ذكر أهوال القيامة ونحوها، كما أنَّ للجلد نصيبه من التفاعل مع كتاب الله، قال تعالى: ﴿اللَّهُ

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩١).
(٢) أخرجه مسلم (٧٧٢).
(٣) أخرجه أبو داود (١٤١٠)، ومعنى تشَزَّنوا للسجود: تهيؤوا له.

نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

ومن بديع ما يُنقل في هذا وغيره، ما ذكره الغزالي وهو يُصوِّر بعض ما ينبغي أن يكون عليه القارئ من تفاعلٍ مع الآيات قلبًا وقالبًا قوله رحمه الله: «تأثُّر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة: فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءَل من خيفته كأنَّه يكاد يموت، وعند التوسُّع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح، وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعًا لجلاله واستشعارًا لعظمته، وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله عز وجل كذكرهم لله ولدًا وصاحبة يغضُّ صوته ويكسر في باطنه حياء قبح مقالتهم، وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقًا إليها، وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفًا منها،... فمثل هذه الأحوال يخرجه عن أن يكون حاكيًا في كلامه: فإذا قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥] ولم يكن خائفًا كان حاكيًا، وإذا قال: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤] ولم يكن حاله التوكل والإنابة كان حاكيًا، وإذا قال: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ [إبراهيم:١٢] فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة، فإن لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان»[(١)].

٣. العقل:

للعقل حظُّه الأوفر من التفاعل مع كتاب الله، فقد توجَّه الخطاب بالأمر بالتفكر والتعقل في كتاب الله مرارًا، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢]، وقال: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، والعقل هو مفتاحٌ لتفاعل القلب والجسد، وكلما ازداد التالي لكتاب الله علمًا واطلاعًا على كتب التفسير وغيرها كان حظُّ عقله أوفرَ وأكثرَ من كتاب الله، وليس المقام هنا مقام تفريق بين التفسير والتدبُّر والاستنباط، أو بيان ضوابطها ومنهجها الصحيح، إنما سنُلمِّح إلى بعض صور تفاعل العقل مع كتاب الله فيما يتَّضح ويصحُّ معناه وُفق فهم سلف الأمة لكتاب الله.

أ. المعايشة القرآنية:

من صور تفاعل العقل مع كتاب الله **المعايشة العميقة** للقصة أو المشهد أو المثل القرآني ونحوها، وذلك في المواطن التي تُرك فيها للعقل أن يسرح بخياله من غير جنوحٍ أو تكلُّف؛ كتصوُّر مشاهد القيامة وكأنها رأي عين، فلذلك أعظم الأثر في طبع تلك المشاهد في النفس وأبلغ في الموعظة، وكتصوُّر بعض القصص القرآني كقصة زكريا عليه السلام وهو قائمٌ يصلِّي في المحراب وقد وهن عظمه واشتعل رأسه شيبًا فلذلك أثره العميق في تطبيع النفس على المجاهدة في العبادة، أو كتصوُّر قصة قوم موسى وقد أمرهم أن يذبحوا بقرة وهم يتردَّدون مرارًا يجادلون نبيَّهم بالباطل مستقبحًا تلك الصفة في نفسه، أو تصور صفة المشرك وهو يخرُّ من السماء فتخطَفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق، أو كتصوُّر الأمثال القرآنية من الأمثال المائية أو النورانية وغيرها من الصور والمشاهد والأمثال، فللمعايشة العميقة أثر ونفع أبلغ، وذلك يحصل بالترتيل والترديد للآية أو المقطع أو السورة.

> **مفتاح تفاعل العقل مع القرآن وتأثُّر القلب به وما يتبعه من تفاعل الجسد يكمن في تفريغ القلب من كل شاغلٍ ومتعلَق إلا الله، وتطهيرُه من كل مرادٍ سِواه، والإقبالُ على القرآن طلبًا للهداية منه، واستفراغ الوسع في ذلك، حتى يتهيأ للتزكية والتحلية والترقّي في مدارج السالكين**

ب. الهدايات الكلية والجزئية:

تختلف الهدايات القرآنية المستوحاة من كتاب الله تعالى كثيرًا باختلاف مقدار تفكر العقل فيه، وهو بابٌ عظيم لمن تأمّله وتدبره وتمرَّس فيه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، عن أبي جُحيفة ﷺ قال: قلت لعلي ﷺ: هل عندكم شيءٌ من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: «والذي فَلَقَ الحَبَّةَ وبَرَأَ النَّسَمَةَ، ما أعلمه إلا فهمًا يعطيه الله رجلاً في القرآن»[(٢)]، ومما يمكن ذكره على سبيل التمثيل بعضُ تلك الجوانب التي يمكن إعمال العقل فيها

(١) إحياء علوم الدين، للغزالي (٢٨٥/١-٢٨٦).
(٢) أخرجه البخاري (٣٠٤٧).

تفاعل أعضاء الجسم مع تلاوة القرآن الكريم

القلب	الجسد	العقل
• اللينُ لسماع كتاب الله • زيادة الإيمان • حصول الطمأنينة • الخشوع لذكر الله • الوجل عند التلاوة • تحقُّق التقوى بالتلاوة	• **العين:** بالبكاء أو بالنظر لما يناسب تلاوة الآيات • **اللسان:** بترديد الآيات والتغني بالقراءة والدعاء المناسب للآيات • سجود التلاوة • تأثر الوجه والجلد	المعايشة القرآنية الذهنية تتبع وتدبر الهدايات الكلية والجزئية

مع أهمية التأكيد على سلوك المنهجية الصحيحة في التدبر واستنباط الهدايات، من تلك الجوانب:

» تتبُّع مقاصد القرآن الكبرى وكلياته في ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣].

» تتبع موضوعات القرآن وقصصه المتكررة في أكثر من سورة وربطها مع بعضها البعض.

» تأمُّل سِمات السور المكية والمدنية، وتأمل المقصد والمحور الرئيسي لكل سورة مفردة.

» تتبع الأسماء الثابتة للسورة وربطها بمقصد السورة أو موضوعها.

» تقسيم السورة إلى وِحداتٍ موضوعية ومحاولة الربط بينها.

» التأمُّل في الهدايات والمقاصد الكلية للمقطع أو القصة قبل الدخول في هداياتها التفصيلية.

» النظر في خواتيم الآيات وعلاقتها بالآية، ويخص منها ورود أسماء الله الحسنى وعلاقتها بالمقطع.

» استنباط الهدايات من الآيات والجمل والكلمات القرآنية وغيرها.

خاتمة:

كلمة السرِّ ليتحقق لقارئ القرآن تفاعل العقل وتأثُّر القلب وما يتبعه من تفاعل الجسد تكمن في تفريغ القلب من كل شاغلٍ ومتعلَق إلا الله، وتطهيرُه من كل مرادٍ سواه، والإقبالُ على القرآن طلبًا للهداية منه، واستفراغ الوسع في ذلك، حتى يتهيأ للتزكية والتحلية والترقي في مدارج السالكين، ثم بترديد الآية وإعادتها مرة ومرات وكأن التالي يتذوق ما يقرأ وينحت الآية نحتًا حتى تترك أثرًا في نفسه وروحه ووجدانه، إلى أن تكون تلك عادته في تلاوته، ولا شك أنَّ تنمية العادات الحسنة وإلزام الإنسان نفسَه بنمطٍ وطابعٍ محدَّدٍ في جوانب الخير عمومًا والتعبُّد خصوصًا ثم الترقّي بها وتثبيتها هو من أَولى ما ينبغي أن يسعى إليه الموفَّق والمسابِق للدرجات العالية، فالسبق بإحسان العمل لا بكثرته، والرفعة إنما تُنال بالثبات على الأمر والمداومة عليه مع الإحسان فيه، وذلك يكون بخلق العادات وتثبيتها والثبات عليها والترقي فيها.

هل أنتج المسلمون عمارةً إسلاميةً على مرّ العصور؟

د. صلاح حاج إسماعيل(*)

الإسلام شريعة ومنهاج حياة، لم تقف تعاليمه عند حدود الحلال والحرام، ولم تقتصر مظاهره على الشعائر التعبدية ولم يكن دين رهبانية وتبتُّل، بل امتدَّ تأثيره ليشمل مختلف أنشطة المجتمع، فانطبعت آثاره على السلوك والعلاقات الاجتماعية والحركة الاقتصادية والأنظمة السياسية والعسكرية، كما شمل الجانب العمراني للمدن والمنشآت والمساكن.

العمارة هي السجلُّ المنظور للتاريخ الإنساني، فما أقامه الإنسان منذ بدء التاريخ من منشآت ومبانٍ وجسورٍ وشوارعَ وساحاتٍ يندرجُ تحتَ العمارة بمسمَّيات مختلفة. والعمارة كما سمَّاها ابن خلدون هي (صناعة البناء)، ووصفها بأنها أوّل صنائع العمران الحضري وأقدمها[1]. والعمران هو العلم الذي اختصَّ بدراسة الكلِّ أي المُدُن التي اجتمعت فيها المباني حيث تُخطَّط مرافقها وتوسُّعاتُها، وهو أحدُ أهمِّ مظاهر الحضارة التي ميَّزت التاريخ البشري. فما زالت الأبنية والعمائر شاهدةً على عظمة هذه الحضارات منذ القدم.

وقد تطوَّرت العمارة والعمران وفقًا للعديد من العوامل، مثل حاجات الناس، ومواد وتقنيات الإنشاء، والبيئة والمناخ، والثقافة والتراث، ليشيد كلُّ مجتمعٍ بشريٍّ مباني ومنشآتٍ تعكس هذه العوامل، وتُشكِّل جزءًا من هوية الشعوب والأمم. وللتعرف على أغوار التاريخ وثقافات الشعوب عبر العصور ندرس ونحلِّل في يومنا هذا العمارة الفرعونية، والبابلية، والرومانية، والفارسية، والمغولية، والنبطية... وغيرها.

ومع التطور العلمي الهائل في القرنين الماضيين انعكس هذا التطور على العمارة والعمران في العالم الغربي كغيرها من العلوم؛ لتظهر مدارس

(*) مهندس معمار وباحث أكاديمي

(١) المقدمة، لابن خلدون، ص (٤٠٦).

ونظريات فكرية تبحث في العمارة والعمران وتسعى لتحديد ملامح وهويات المباني والمنشآت من خلال مبادئ ومنطلقات تحدِّد طرازًا للمبنى وطابعًا عامًّا للمدينة، مع افتراض أنّ هذه المعايير والمبادئ الفكرية هي التي أنتجت هذه الأشكال والطُّرز المعمارية.

أكَّد الباحثون وجود عمارةٍ إسلاميةٍ في مختلف حواضر الإسلام؛ لكون المبادئ والمفاهيم التي بُنيت عليها وأنتجت هذا التنوّع في الطراز والطابع هي مبادئ واحدةٌ ومفاهيم عامةٌ نابعة من الإسلام الحنيف وتعاليمه

عمارة إسلامية أم عمارة مسلمين؟

في هذا الوقت بدأ الحديث من بعض الباحثين عن العمارة الإسلامية، طابعًا عامًا لمدن وحواضر العالم الإسلامي[١]، مع تنوُّعٍ في الطراز بين أمويٍّ وعباسي وسلجوقي وعثمانيٍ وفاطمي وأندلسي؛ لتُصبح تسمية ووصف عمارةٍ ما بأنَّها عمارةٌ إسلامية حقيقةً بدهيةً لكثيرٍ من الناس، ثم ظهر مَن يُطالب بتصحيح المصطلح لتسمَّى هذه العمارة بـ«عمارة المسلمين» بدلاً من «العمارة الإسلامية»[٢]، ودارت سجالاتٌ طويلة لعقودٍ حول ذلك.

فمن قال إنها عمارة إسلامية لفت النظر إلى أنه على الرغم من تنوع مناطق المسلمين ومدنهم، وتنوُّع بيئاتهم وثقافاتهم واختلاف احتياجاتهم فقد كان اختلاف الطراز في الشكل فحسب، أمّا المفاهيم والمبادئ التي قامت عليها العمارة فإمّا أنّها تنبع من فهم فلسفة الإسلام ومقاصده، أو أنّها في كثير من الأحيان ناتجة عن فهم وتطبيق أحكام الإسلام.

بينما حاول الآخرون تأكيد فكرتهم من خلال إعطاء الأمثلة عن انعدام الوحدة في السمات والأصول المشتركة لهذه العمارة، فمسجدٌ بُنِيَ في العراق في الفترة العباسية لا يُشابه بأيّ شكل مسجدًا بُنِيَ في الأندلس في الفترة نفسها[٣].

نجد مثالًا على هذا الاختلاف في التنوُّع في عمارة المآذن، لكن الحقيقة أنَّ هذا التنوُّع شكليٌّ فحسب، لا يمسُّ الأساس والأصل المشترك لوجود المئذنة ووظيفتها، والخطوط العامة لبنائها.

وهنا انبرى العديد من الباحثين المتخصّصين بالعمارة الإسلامية ليؤكِّدوا وجود عمارةٍ إسلاميةٍ في مختلف حواضر الإسلام[٤]؛ لكون المبادئ والمفاهيم التي بُنيت عليها وأُنتجت هذا التنوّع في الطراز والطابع هي مبادئ واحدةٌ ومفاهيم عامةٌ نابعة من الإسلام الحنيف وتعاليمه كما فهمها المسلمون وطبَّقوها في مختلف جوانب حياتهم، وشيّدوا حضارةً أساسُها تطبيق فهمهم للإسلام وتعاليمه وكانت مدنهم ومبانيهم انعكاسًا لمبادئ الإسلام ومقاصد الشريعة.

المسلمون هم أكثر أتباع الأديان تطبيقاً لدينهم في مختلف شؤون حياتهم، فالصلاة التي يقيمها المسلم خمس مرات في يومه وليلته، وأحكام الاستئذان والصلة والقربى، من التجذُّر في ثقافة المسلم وسلوكه لدرجة ظهور تأثيرها المباشر على سائر شؤون الحياة، بما في ذلك العمارة والعمران

ومما يثير الدهشة أنَّ هذا الخلاف الفكري كان مُخصَّصًا فقط للعمارة والآثار الإسلامية، فلا تسمع في النقاشات أو الدراسات أو حتى المصطلحات عن عمارةٍ هندوسية، أو مسيحيةٍ مثلاً، ولا حتى يهوديةٍ أو بوذيةٍ، ولطالما كانت التصنيفات مُرتبطة بالأمم والشعوب التي أنتجت هذه العمارة، لذلك تحدّثنا عن عمارة فرعونية وبابلية وهندية، وهذا عائد إلى أمرين اثنين، وهما:

الأول: أنَّ الإسلام صار بالنسبة للمسلمين هوية وقومية إلى جانب كونه دينهم، فمهما اختلفت المناطق والأعراق والقوميات، بقيت العمارة التي شيَّدها المسلمون تحمل سماتٍ موحَّدةً، تحقِّق ذات المقاصد والغايات وتنطلق من ذات الأحكام والمبادئ، فلا يمكن نسبة هذه العمارة إلى أي قومية أو منطقة غير الإسلام.

(١) Islamic cities and conservation (المدن الإسلامية والحفاظ عليها) جيم أنتونيو ص (٢٣-٣٠).

(٢) هناك العديد من الدراسات والمواقع تقارن وتناقش الفرق وضرورة تغيير التسمية بين عمارة إسلامية وعمارة المسلمين منها على سبيل المثال: مقالة (العمارة الإسلامية أو عمارة المسلمين Islamic or Muslim Architecture) على موقع islamicity.org، ومقالة (العمارة الإسلامية مقابل العمارة المسلمة: بعض الملاحظات Islamic versus muslim architecture: some observations) على موقع medinanet.org.

(٣) المساجد، لحسين مؤنس، سلسلة عالم المعرفة، رقم (٣٧)، ص (٩٤-١٠٥).

(٤) المدينة الإسلامية، لمحمد عبد الستار عثمان، سلسلة عالم المعرفة، العدد ١٢٨، أغسطس ١٩٨٨م، ص(٥-٦).

والثاني: أنَّ المسلمين هم أكثر أتباع الأديان تطبيقًا لدينهم في مختلف شؤون حياتهم، فالصلاة التي يقيمها المسلم خمس مرات في يومه وليلته، وأحكام الاستئذان والصلة والقربى؛ من التجذُّر في ثقافة المسلم وسلوكه لدرجة ظهور تأثيرها المباشر على سائر شؤون الحياة، بما في ذلك العمارة والعمران.

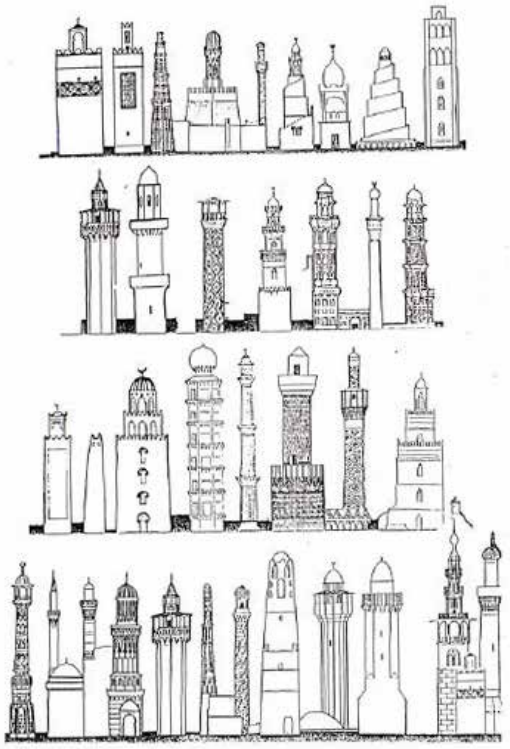

شكل رقم ١: نماذج متنوعة للمآذن في العالم الإسلامي(١)

مناهج المعماريين المسلمين المعاصرين:

مع تراجع المسلمين وتفكُّكهم إلى دويلاتٍ وشعوب تفرِّق بينها القوميات والعرقيات، ومع اشتداد الحرب على الإسلام كي لا يكون الأساس والركيزة التي تجمعنا أمّةً واحدة ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]، ومع تقدم الغرب وتزايد البعثات الدراسيّة إلى الدول الغربية لدراسة العلوم ومنها العمارة؛ تأثَّر مُهندسونا بالنظريات والتصنيفات الغربية التي وُضع فيها كلُّ عُنصرٍ معماري بمقاساتٍ وأشكال مختلفةٍ منمَّطة ومرتَّبة، وما على المهندس إلا أن يُوفِّق بين هذه العناصر وبين المساحة المتاحة أمامه دون أن يُعمل عقله فيها أو يسأل عن مدى ملاءمتها واستجابتها لحاجات المجتمعات المسلمة، لينقسموا مرّةً أخرى بين مناهج ثلاثة:

> **من مظاهر التراجع الحضاري تأثُّر المُهندسين المسلمين بالنظريات المعمارية الغربية، وغياب أثر المبادئ والقيم الإسلامية عن منتجاتهم، فصارت العمارة استنساخًا مجرداً للعناصر المعمارية دون مناقشة مدى ملاءمتها لحاجات المجتمعات المسلمة**

المنهج الأول: يعمد إلى نقل عمارة الغرب كما هي، كما فعل «عبد الباقي إبراهيم» قبل أن يبدأ رحلته في البحث عن هويته كما ذكر هو في كتابه (البحث عن الذات)، وما زال هذا المنهج ساريًا إلى اليوم في مدارسنا وجامعاتنا، واهِمين أنَّه أحدُ مصادر التقدّم، وأنَّ الغرب لم يتقدّم إلا به. في الشكل رقم (٢) المنزل الشهير من تصميم «ميس فاندر رو»(٢)، والذي يعبرّ عن فلسفة التصميم (Less is More...) بمعنى الأقل هو الأكثر، والذي صمَّم فيه منزلاً مفتوحًا وشفافًا من كل الجهات، والذي قام بنقل فلسفته كثير من مهندسينا في وقتنا الحالي باعتباره أسلوبًا للتقدم والتطور الفكري والاجتماعي، دون مراعاةٍ لعدم مناسبته لتعاليم ديننا الحنيف وثقافتنا وعاداتنا بالحفاظ على الخصوصية، بل إنّهم لم يراعوا أنّ صاحبة المنزل نفسها رفعت على المهندس دعوى قضائية لأنَّ المنزل لا يناسب تقاليدها هي رغم ثقافتها وعاداتها الغربية، مُعبِّرةً بأنَّها شعرت بنفسها مكشوفة وغير محمية من أعيُن الفضوليِّين طوال اليوم، ولم تستطع أن ترتاح في منزلها الذي يُفترض أن يكون مسكنًا يعطيها الشعور بالراحة والسكينة(٣).

أما **المنهج الثاني:** فقد تأثَّر بالغرب حينما أراد إعادة الأنماط المعماريّة الإسلامية، فقلَّدوها من حيث الشكل دون المضمون، كما فعل «حسن فتحي» في أعماله، فقاموا باستعارة ونسخ عناصر

(١) المآذن والمنارات والمحاريب، مقال لجلال شوقي، ٢٠١٨م، على موقع ASPD شركة التقدم العلمي للنشر والتوزيع.
(٢) مقالة (less is more) على مدونة توم ويلسون tomwilson.com
(٣) مقالة (مقاضاة ميس فاندر رو: المعركة مع عائلة فارنسورث Mies van der Rohe Gets Sued - The Battle with Farnsworth)، لجاكي كرافن، ٢٠١٩م، على موقع thoughtco.com.

معمارية تراثية دون النظر لوظيفتها ودورها في المبنى، فقلَّ الإبداع والابتكار اللازم للاستجابة للحاجات المستجدَّة للمسلمين في هذا العصر.

أما **المنهج الثالث:** فهو الذي حاول أن يُثبت أنَّ النظريات العمرانية والمعمارية وما أنتجه الفكر الغربي من مدارس وأساليب عمرانية موجودة أصلاً في الفكر الإسلامي ومتوافقة معه، فقاموا (بأسلمة) الفكر الغربي لمحاولة إثبات أنّ أصل هذه الأفكار موجود في القرآن والسنّة؛ والاستدلال بذلك على الإعجاز الإسلامي في العمارة، كما في غيره من العلوم كالفلك والفيزياء والرياضيات والطب.. فنجد الدراسات التي تثبت أنَّ العمارة العضوية أو التكعيبية وحتى العمارة المستدامة بمفاهيمها ومبادئها ومعاييرها سبقها الإسلام بقرون فوضع أُسسها في آياتٍ وأحاديث متفرّقة، جمعتها هذه الدراسات وقارنتها مع هذه المدارس الفكرية الغربية لتثبت أسبقية الإسلام! ونجد هذا الاتجاه في أعمال «يحيى وزيري» ودراساته.

شكل رقم ٢:منزل عائلة فارنسورث - الينوي أمريكا، تصميم ميس فاندر رو

فصرنا نجد دراساتٍ عن العمارة في القرآن والسنّة إمَّا بذكر كلماتٍ ومصطلحاتٍ معمارية وردت في القرآن والسنّة كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨] مع محاولة تفسير دلالتها باصطلاحات اليوم، كالقول بأنَّ كلمة «يعمُر» هنا تدلُّ على البناء والتشييد الفيزيائي للمساجد والجوامع. وعلاوة على ذلك نجد بعض البحوث التي تحاول ليَّ أعناق النصوص لتتوافق مع الواقع المعاصر فكريًّا وتقنيًّا، حيث قام أحد الباحثين[١] باختراع تفسير لمعنى القرية والمدينة في القرآن الكريم، وزعم أنَّ (القرية) لا تُسمّى (قرية) إلا إذا كان سكّانها من نسيجٍ واحدٍ مؤتلف؛ كأن يكونوا من نسبٍ واحدٍ، أو عقيدةٍ واحدةٍ، أو صفةٍ واحدةٍ، و(القرية) عنده هي القرية المعروفة لدينا الآن، والتي لا يزيد عدد سكانها عن بضعة آلاف نسمة. وأنَّ (المدينة) عنده هي البلدة التي يسكنها أشخاصٌ ليسوا من نسيجٍ اجتماعيٍّ واحد، وهي في رأيه أكبر من القرية مساحةً وأكثرُ سكّانًا. واستدلَّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧]، وبقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢]. فقال: «نلاحظ في الآية الأولى (أتيا أهل قرية) في الصباح.. وفي الآية الثانية تحوَّلت القرية نفسها إلى (مدينة) في المساء؟» ثم أضاف: «السرُّ في هذا، أنّها سُميت (قرية) في الآية الأولى لأنَّ أهلها كانوا مُجمعين على البخل، أي يجمعُهم وصفُ البخل، فلما جاء ذكرُ الغلامين اليتيمين وأبيهما الصالح في الآية الثانية سُمِّيت قريتهم (مدينة) لأنّه حدث فيها تنوُّعٌ سكاني.. أي اجتمع فيها عنصر الخير والشرِّ معًا»! هذا مثال عن محاولة تطويع النصوص لتفسير المصطلحات المعمارية والعمرانية بمفاهيم اليوم وتقسيماته بدلاً من فهم النص ومعانيه التي قصدها الشارع الحنيف، وتطبيقها اليوم بما يناسب الحاجات والظروف المعاصرة.

علينا أن نفقه أحكام الدين وآدابه كما فهمها المعماريون المسلمون السابقون فترجموها من خلال المدن والمنشآت، وأن نستنبط قواعد للعمارة بما يناسب واقعنا الذي تطورت فيه المواد والتقنيات والأساليب والاحتياجات، وذلك بأن نحذو حذوهم بالمنهج لا بالمُنتج

فقه العمارة عند السلف:

لا نُنكر أبدًا وجود دلالاتٍ وإشاراتٍ في القرآن والسنة وأقوال السلف الصالح عن العمارة والعمران، وكيف فُهمت ووُجِّهت لتخدم المجتمع

(١) ينظر مقالة (الرد على د.علي كيالي في الفرق بين القرية والمدينة في القرآن)، محمد رجب حميدو، موقع رابطة العلماء السوريين.

المسلم ليعيش حياته ويقوم بنشاطاته وفقًا لتعاليم الدين الحنيف، ولكن المستنكر نسيان المقاصد والغايات من هذه الإشارات في يومنا هذا، وهي إعمال العقل واستنباط القواعد التي تحكم العمارة والعمران سواء في التصميم أو التخطيط أو الإنشاء. وما يقع علينا اليوم هو أن نفهم كما فهموا، ونستنبط القواعد والأحكام لعمارتنا اليوم بما يناسب واقعنا الذي تطورت فيه المواد والتقنيات والأساليب، بل حتى الاحتياجات والمتطلّبات، وذلك بأن نحذو حذو السلف بالمنهج لا بالمُنتج.

وما يحزُّ في صدورنا اليوم هو الغياب المعاصر لفقه العمارة والعمران، فبينما انشغل المعماريون الأوائل بدراسة الإسلام وكتبوا في فقه العمارة والعمران، وشرحوا كيف فهموا الإسلام وطبَّقوا تعاليمه وتوجيهاته في العمارة والعمران، ووضعوا الأحكام والشروط كما فعل ابن الرامي في كتابه (الإعلان في أحكام البنيان)، وعيسى بن موسى النطيلي في كتابه (القضاء ونفي الضرر عن الأفنية والطرق والجدر والمباني والساحات والشجر)، وابن عبد الحكم الفقيه المصري في كتابه (البنيان)، وكانت هذه الدراسات امتدادًا لمدوَّنات سابقة أصَّلت نوازل البنيان مُشَكِّلةً أُسُسًا تصميميةً مُستمدَّةً من الأحكام الفقهية، كما في مدونة الفرسطائي والمازري على سبيل المثال لا الحصر؛ انشغل فريق منا بفهم النظريات والمدارس الغربية وتوفيقها أو تلفيقها مع الإسلام، وسعوا إلى تلبية احتياجات المجتمع من خلالها. ولا ننفي تصدُّر عدد من الدارسين ليتناولو فقه العمارة كما فعل خالد عزب وخليل الزركاني في كتابيهما (فقه العمارة الإسلامية)، لكنّهم قليل في ظلّ الاحتياج الحضاري الهائل للمسلمين في بلدانهم المترامية الأطراف.

ربما لم يحفظ لنا التاريخ أسماء المهندسين أو المخطّطين، ولكنّه حفظ الصروح والآثار الناتجة عن التطبيق العملي للمفاهيم الإسلامية، فاكتشفنا نمط حياة المسلمين من خلال دراسة مبانيهم، ولكنَّنا في الغالب ركَّزنا النظر إلى الشكل ونسينا المضمون فلم نتعلَّم ونبحث عمّا يستجيب لحاجات المسلمين في عصرنا، وغاب عنا سؤال: هل مبانينا وعمائرنا حلال أم حرام؟ بل لم يخطر على بال الكثيرين منَّا أنَّ البناء والتشييد والعمارة والعمران قد يكون مباحًا، مندوبًا، مكروهًا وربما محرمًا نأثم ونحاسب عليه، كما في قصة مسجد الضرار المشهورة بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧] فكان بناء المسجد كفرًا وتفريقًا بين المؤمنين.

نحن اليوم بأمسِّ الحاجة لقراءةٍ معاصرةٍ تُنتج فقه عمرانٍ يُناسب عصرنا ويُنتج عمارةً تُناسب احتياجاتِ الناس وتنفعُهم وبنفس الوقت تطبِّق الإسلامَ وتعاليمَه وتنتهي عن نواهيه ومحظوراته. نحن بحاجةٍ إلى معمارٍ فقيهٍ وإلى مَجمعٍ فقهيٍّ معماري يُستشار ويُسأل في أحكام العمران كما أسّسنا مجامع فقهية في الاقتصاد والتعليم والطب.

> **نحن اليوم بأمسِّ الحاجة لفقه عمرانٍ يُناسب عصرنا وعمارةً تُناسب احتياجاتِ الناس وفي الوقت نفسه تنضبط بضوابط الإسلام. كما أنَّنا بحاجةٍ إلى معمارٍ فقيهٍ وإلى مَجمعٍ فقهيٍّ معماري يُستشار ويُسأل في أحكام العمران كما في الاقتصاد والتعليم والطب**

نماذج من التطبيق العملي لفقه العمارة:

للدلالة على فهم السلف الصالح لفقه العمران وتطبيقهم له في البناء والعمران نجد من الأمثلة الكثير، أوّلها فهمهم أنّ عمارة الأرض تكليف من الله سبحانه وتعالى، بقوله: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]. فقد حثَّ الإسلام على عمران الأرض وإحياء مَواتها واستثمارها بالخير وبما ينفع الناس أفرادًا ومجتمعات.

كما استلهم المعماريون المسلمون من الإسلام حثه على الوحدة والتجمع والصلة، فكانت أبنيتهم مرصوصة يشدُّ بعضُها بعضًا، فنرى مدن وحواضر العالم الإسلامي تتشابك بيوتُها ومبانيها، وتشتركُ في الجدران وتستند على بعضها البعض لتكون المدينة كأنّها بناء واحد متّصل (كما في الشكل رقم ٣ مدينة غرداية في الجزائر).

ونجد هذا الفهم أيضًا بالارتباط الوثيق بين الجامع والسوق، حتى كأنَّ مخطِّطي المدن اختطُّوا مكان المسجد بقرب الأسواق انعكاسًا

شكل رقم: ٣ مدينة غرداية في الجزائر وكأنها مبنى واحد متصل يشدّ بعضه بعضا

وتطبيقًا لفهمهم لمكانته في الإسلام، فجعلوه في مركز العمران، وجعلوا السوق إلى جانبه، تيسيرًا وتسهيلاً على المسلمين في أداء صلاتهم في المسجد دون انقطاع عن أعمالهم وتجارتهم.

بل نجد أنّ المدن التي بُنيت قبل الإسلام عندما دخلها المسلمون قاموا بتحويلها وتعديلها بالطريقة نفسها، كما في حلب عندما بُنِيَ المسجد الكبير، الذي جُعل في وسط الأسواق المغطاة والمتّصلة، ولم يكن داخلَ قلعة المدينة الأكثر تحصينًا والأشد تأمينًا عند الحروب. وفي موضع آخر عندما كان الانتشار في الأرض وابتغاء فضل الله يحصل عن طريق الزراعة وليس التجارة كما في قرية سدوس في نجد؛ حيث اختير موقع المسجد على أطراف المدينة بحيث يخرُج المصلُّون إلى أراضيهم ومزارعهم بعد انقضاء الصلاة، وفي الوقت نفسه يسهُل عليهم حضور صلاة الجماعة في المسجد عند كل صلاة[1].

لقد فهم سلفنا الصالح من المعماريين مقاصد الشريعة في حفظ: الدين، والنفس، والمال، والعرض، والنسل. وطبَّقوا هذا الفهم ليُسهموا في تحقيق هذه المقاصد من خلال العمارة، ففي حفظ العرض والنسل على سبيل المثال: صمّموا البيوت وبنوا الدور التي امتنّ الله على الناس بأنْ جعلها سكنًا: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠]؛ فحقَّقوا السكينة والطُّمأنينة ببناء البيوت بشكل يقي من الضوضاء، ويحقق عزل الحرارة والبرودة، ويوفر الخصوصية، كلّ ذلك في إطار منهج الوسطية في البناء مطبِّقين مبدأ لا ضرر ولا ضرار للساكن والجار، وحتى للمارة في الشوارع. هذا الفهم للمقاصد والمبادئ الواحدة نتج عنه تشابهٌ في مضمون التصميم للمساكن في مشارق بلاد الإسلام ومغاربها، مع التنوُّع الكبير في الأشكال والحلول المتَّبعة لتحقيق هذه المقاصد والأهداف، رغم اختلاف البيئة والمناخ ومواد البناء، ففي المناخ الحار كان الانفتاح على فناءٍ داخليٍّ في المنزل يحقِّق الخصوصية والعزل عن الضوضاء، وفي المناخات التي احتاجت الانفتاح على الطريق، كانت المشربيَّات والرواشن هي الوسيلة لتامين الخصوصية والعزل.

وللمساكن حُرمتُها؛ فمن الأدب عدم دخول البيت إلا بإذن أصحابه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧] ويعني ذلك احترام حرمة المسكن وحرمة ساكنيه؛ الأمر الذي انعكس بالتالي على التصميم الداخلي للبيوت من خلال فصل غرف استقبال الضيوف والزوار عن باقي غرف المسكن، وبالتالي تُصبح غُرف المعيشة العائلية مرتبطةً أكثر باستعمال أهل البيت ومَن هم مِن محارمهم، وذلك

(١) عمارة سدوس التقليدية، لمحمد عبد الستار عثمان، ص (٥٧-٦٤).

خلافًا للمعايير الغربية التي يختلطُ فيها الغريب بالقريب من الرجال والنساء. هذا مثالٌ واحدٌ من مبادئ تصميم المساكن، ولو أردنا تفصيل كلّ عنصر فيه والفقه الذي بُنِيَ وفقًا له فسنحتاج إلى تفصيلٍ واستطرادٍ كبيرٍ، لا يتّسِع له المقام.

فَهْمُ المعماريين المسلمين الأوائل للمقاصد والمبادئ الإسلامية نتج عنه تشابهٌ في مضمون التصميم للمساكن في مشارق بلاد الإسلام ومغاربها، مع التنوّع الكبير في الأشكال والحلول المتَّبعة لتحقيق هذه المقاصد والأهداف، رغم اختلاف البيئة والمناخ ومواد البناء

وفي حفظ النفس قاموا ببناء المستشفيات (البيمارستانات) بما يحفظ الصحّة الجسدية والعقلية والنفسية، وحرصوا على أن يكون البيمارستان قريبًا من الأنهار ومنابع الحياة، وذلك عائدٌ إلى حرصهم الشديد على إيصال الماء الجاري إلى بيمارستاناتهم، تفقُّهًا لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٠] والأمثلة على ذلك كثيرة، فالمستشفى العضُدي في بغداد كان الماء يدخل إليه من دجلة، والمستشفى النوري في حلب كان به بركتا ماء تأتي بالماء العذب إليهما من قناة «حيلان»، بل حرصوا في بعض الأحيان على إيصال المياه إلى جميع عنابر المرضى. ولعلّ القصة الأشهر على أهمية اختيار الموقع لبناء المشافي عندما سأل أحد الأمراء أبا بكر الرازي عن أفضل المواضع لبناء المستشفى المعتضدي، فأمر الرازي بعض الغلمان أن يُعلِّق في كلِّ ناحيةٍ من جانبي بغداد شقَّة لحم، ثم اختار الموضع الذي لم تتغيّر فيها قطعة اللحم سريعًا وأشار بأن يبنى البيمارستان في ذلك الموضع[1]، فهذا المكان كان أفضل مواضع بغداد في نقاء الهواء وجودته واعتداله، وهي عوامل غايةٌ في الأهمية لعلاج المرضى أصحاب المناعات الضعيفة. وهذه القصة تدل على اعتناء المهندسين والأطباء بتحقيق أفضل الشروط لحفظ النفس.

هذه الأمثلة ليست إلا غيضًا من فيض المعرفة التي جمعها السابقون، ونسيناها نحن اللاحقين بمحاولتنا تقليد المدنية الغربية الحديثة، وتخلّينا عن مبادئ ومفاهيم ديننا الحنيف الذي أعزنا الله به، ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلَّنا الله، كما قال الفاروق رضي الله عنه.

الخلاصة:

أنَّ الله جعل أسبابًا ماديَّة يقوم بها البشر كي يحقِّقوا الاستعمار في الأرض، ومن هذه الأسباب البناء والتشييد والعمارة والعمران. وعلى هذا الأساس إن كنا نريد اليوم أن ننتج عمارةً إسلاميةً لا عمارةً بناها مسلمون دون فهمٍ أو تطبيق لمقاصد هذا الدين العظيم، فيجبُ علينا أن نفهم دور المهندسين في المجتمعات المسلمة اليوم، وفهم حاجات هذه المجتمعات والاستجابة لها مع الفهم الكامل للشرع الحنيف والعمل على التوفيق بين حاجات المجتمع والمبادئ الدينية والمقاصد الشرعية، بتطبيق منهجنا الوسطي دون إسراف أو تقتير.

يضاف إلى ذلك كما سبق: ضرورة تأسيس مَجمع فقهي للعمارة والعمران لينظر في القضايا الجديدة الناتجة عن التطوّر التقني والعلمي، ويبحث في تأصيل العمارة الإسلامية على أُسُس وضوابط شرعية تُنقل وتُدرَّس للمهندسين الناشئين ليتفاعلوا معها ويعودوا إلى ابتكار وتطوير ما ينفع الناس، ويبتعدوا عن التقليد والنسخ لثقافاتٍ وأُسسٍ لا تناسب ثقافتنا ومجتمعنا، بل تتعارض في كثيرٍ من الأحيان مع تعاليم ديننا وضوابطه الشرعية. ولا بد من إعادة تصنيف المباني اليوم شرعيًا، كما نُصنِّفها من حيث الوظيفة والشكل والمواد ونظام البناء، وكما توجد شهادات للمباني البيئية والخضراء والموفِّرة للطاقة؛ لا نجد تصنيفًا للمباني على الأسس الشرعية الإسلامية، فيجب تحديد ماهية: البناء الواجب، البناء المندوب، البناء المباح، والبناء المحظور. وعندها فقط نستطيع أن نصف مدينة أو مباني هنا أو هناك بأنَّها عمارة إسلامية، ولو بناها غير المسلمين.

وأخيرًا.. يجب ألّا نكتفي بتدريب وتعليم المهندسين الجدد على كيفية الاستجابة لشروط البيئة والمناخ، وكيف يتفاعلون مع تقنيات البناء وموادِّه من وجهة نظرٍ تقنيةٍ بحتة، بل على النقيض يجبُ إيلاء الاهتمام بفهم فلسفة التصميم ومبادئه لتكون مبنية على فلسفة إسلامية أصيلة وفقه إسلامي صحيح يوافق تعاليم الشرع ويحقق الحاجات الدينية والشرعية والبيئية والحياتية للمسلمين في بقاع الأرض التي أُمرنا بإعمارها.

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة، ص (٤١٥).

خواطر حول استمرار الدعوة

أ. محمّد ياسين نعسان (*)

تجول في النفس أفكار وخواطر حول هذه الدعوة المباركة، والسُّبل التي أسهمت في وصولها إلينا، والدور الملقى على عاتق كل منا في نشرها، والأولويات التي يحسن بنا أن نقدمها، والتحديات التي تواجه الدعوة في وقتنا الحاضر، والفرص السانحة والإمكانات المتاحة أمام الأمة، والبُشريات التي تحفز النفوس لمواصلة الطريق، وهذه الأفكار والخواطر وغيرها منثورة في ثنايا هذه المقالة.

كان محمّدٌ ﷺ آخرَ نبيٍّ لكنَّه أوَّل مَنْ ورَّثَ وظيفة النبوَّة لأمَّته، فكان هذا التوريث(١) تشريفًا وتكليفًا للمسلمين في آنٍ معًا، ومن هنا كان التميُّز الذي نالته الأمّة الإسلامية عن من سبقها من الأمم التي كانت مُطالَبةً بأن تُؤمن برسالات أنبيائها فحسب، في حين أنّ أمّة خاتم الأنبياء قد كُلّفت -إضافةً إلى الإيمان برسالة نبيّها عليه الصلاة والسلام- بنقل هذا الإيمان لباقي الأمم، وبهذا كان التّفضيل، وكانت الخيرية.

ومن هُنا ندرك أنَّ الدعوة إلى الله بطرقها المتنوّعة ليست عملاً خاصًّا، وليست تخصُّصًا مهنيًّا، إنّما هي ثقافة مجتمع، ووعيٌ شعبيّ بما يجب أن يكون عليه حالُ البشرية جمعاء من الرحمة بهم ودعوتهم للنجاة والفلاح، فالدعوة لابدّ من أن تبقى حالة ثقافية اجتماعية، تكون ركيزة أساسية ومنطلقًا فكريًا تُؤسس عليه مختلف شؤون الأمة السياسية والعسكرية والتعليمية والإعلامية، وكافة أنشطتها في التواصل والتعامل مع شعوب العالم.

الدعوة رسالة مجتمعية:

شكلت التوجيهات النبوية من قبيل (بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً)(٢)، و(لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا، خَيْرٌ

(*) كاتب سوري

(١) (إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، ورثوا العلم) أخرجه أبو داود (٣٦٤١).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦١).

لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ)[1] وقودًا دافعًا للمؤمنين لينسابوا في الأرض وينشروا دين الله، ويُشيِّدوا دعائم مجتمع حضاري ينتشر صداه في العالم أجمع، تتطلَّع شعوب الأرض إلى العدالة التي يحملها والرحمة التي يتَّصف بها.

ونظرًا للحاجة الكبيرة للدعوة ورعاية العلماء وطلبة العلم الذين هم حَمَلَةُ الدعوة، ومرجعُ كلّ من رغب في تعليم دين الله؛ قامت أنظمة مجتمعية متقدمة لخدمة هذا الغرض، ومنها:

- نظام العمل الطوعي دون أجر دنيوي، ابتغاء مرضات الله تعالى؛ فكان العلماء يجلسون للناس في المساجد وأماكن التعليم لبث العلم ونشره بينهم تطوعًا لله تعالى، وألفوا الكتب والرسائل الكثيرة بالطريقة نفسها، فقامت حركة علمية نشطة في شتى نواحي العالم الإسلامي، وفتحت المدارس وأماكن التعليم أبوابها لطلبة العلم.
- نظام الوقف الإسلامي، فكان إضافةً جديدة للبشرية من حيث فكرته القائمة على حبس الأصول وتسبيل ثمرتها في صورة عملٍ تطوُّعي مجتمعي خارج تحكُّم الدولة، فكان وما زال الركيزة الأساسية والراعي الرئيس للكثير من الأعمال الدعوية والمجتمعية -التي لم تَخْلُ منها قرية أو حيّ في طول العالم الإسلامي وعرضه- كالتعليم في الكتاتيب والحِلَق والمساجد والمدارس، والصحّة، وأشكال التكافل الاجتماعي كافَّة، بل كانت الدولة تقترض من هذه الأوقاف عند الحاجة إلى بعض النفقات العسكرية في بعض العصور[2].

> **نظام الوقف الإسلامي بفكرته القائمة على حبس الأصول وتسبيل ثمرتها في صورة عملٍ تطوُّعي مجتمعي خارج تحكُّم الدولة كان وما زال الركيزة الأساسية والراعي الرئيس للكثير من الأعمال الدعوية والمجتمعية التي لم تَخْلُ منها قرية أو حيّ في طول العالم الإسلامي وعرضه**

لماذا ندعو إلى الله.. أم كيف ندعو؟

ليس المطلوب اليوم البحث عن أسباب الدعوة ومحاولة إقناع الناس بها؛ فالأسباب قائمة، وما دام في المسلم عرق ينبض فالدعوة مهمةٌ وواجبة، بل يمكننا القول: إنَّ دواعي الدعوة قد زادت وتوسَّعت في هذا العصر عن العصور السابقة، لكنَّ ما ينبغي اليوم هو البحث عن الكيفيّة التي من خلالها يتمّ الوصول إلى الآخَر، مع تطوّر تقنيات التواصل والتنقّل، وتقدّم أدوات الترجمة، والتداخل الثقافي الهائل في الفضاء الإلكتروني، وتحوُّل العالم إلى ما يشبه القرية الواحدة.

هذا الأمر يجعلُنا نفكّر بثقافة الآخَر ودراستها، وفهم شرائح هذه المجتمعات والإلمام بكلّ ما يخصّ تُراثَها الفكريّ والعقائديّ والفلسفيّ؛ حتى نصل للُغَةِ خطابٍ متناسبةٍ مع ثقافة المجتمع المستهدَف بالدّعوة، فلا يمكن أن ندعو مجتمعًا مستغرقًا بالعقلانية بلغة خطابيّة إنشائيّة، ولا يَحْسُن الاقتصار في مخاطبة المجتمعات على اللغة العقلانية وحدها، وهذا ما يُستَشفّ من كتاب (الإسلام بين الشرق والغرب) للمفكر الإسلاميّ الكبير علي عزت بيجوفيتش -رحمه الله- الذي خاطب به الغرب بلغتهم العلمية الفلسفية التي تتَّخذ من العقل مرتكزًا ومنطلقًا لأيّ حوار مُفترض. وعندما تريد أن تقدّم الإسلام للشرق أو للغرب لا يمكن تجاهل التاريخ الفكري والإرث الحضاري الذي أدّى إلى تكوين هذه العقلية وهذه المعتقدات التي تتبنّاها أيّ أمّة اليوم، وكما أنَّه لا يُمكننا تجاوُز الشافعي والغزالي وابن تيمية ومالك بن نبي وسيّد قطب في الحديث عن النهضة العربية الإسلامية، فكذلك لا يمكننا تجاوز أثر هيغل وكانط وديكارت في حوارنا مع الغرب، ولا يمكننا إهمال تعاليم وثقافة كونفوشيوس وبوذا وكتب الفيدا والأوبانيشاد في حوارنا مع الصينيين والهنود... وهكذا، وذلك بهدف معرفة خلفياتهم الثقافية ومعتقداتهم الدينية وبالتالي مخاطبة كلّ أمّة بما يناسبها، وهذا ما فعله أيضًا بيجوفيتش في كتابه الموجَّه للمسلمين (الإعلان الإسلامي)، وكتاب (عوائق النهضة الإسلامية)، وفي هذا الصدد يُذكر أنَّ أحد الدعاة الماليزيين أراد الذهاب للصين للدعوة فقرأ مئتي (٢٠٠) كتابٍ عن الثقافة والمجتمع الصيني

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٩) ومسلم (٢٤٠٦).

(٢) حصل ذلك زمن الخليفة العباسي الموفق أثناء التصدِّي لحركة الزنج جنوب العراق، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزي (١٢/ ٣٣٧)، وحصل في زمن نور الدين زنكي لمواجهة الحملات الصليبية، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، لابن أبي شامة (١/٧٦-٧٧).

ليشكّل لنفسه أرضيّة صلبة ينطلق منها للوصول إلى ما يريده ولغايته التي يسعى إليها[1].

فهذه المهمّة التي كُلِّفْنا بها تناسبت معها طردًا صفةُ الخيرية على باقي الأمم، وتستحقّ منّا كلَّ هذا الجهد والبذل، وإلّا كانت النتائج عكسيّة ومخيّبة للآمال إذا لم يكن الداعية على مستوى الحدث وعلى مستوى المهمّة العظيمة.

تحدّي الدعوة في ظلّ التأخر الحضاري للمسلمين:

يعيش العالم اليوم حالةً غير مسبوقةٍ من التردّي على المستوى الحضاريّ والفكريّ والقيميّ، وبلداننا ليست بمنأى عن هذا التردّي. وفي ظلّ هذا التدهور الحضاري حُقَّ لنا أن نسأل أنفسنا: كيف يمكن لبلادٍ تعيش في مؤخّرة الركب العالميّ أن تصدّر للعالَم الذي يسبقها بسنوات طِوال منظورَها ورؤيتَها ودينَها؟!

التأثير متبادلٌ بين العقائد والأفكار من جهةٍ وبين الأحداث والوقائع من جهةٍ أخرى، إلا أنّه ليس من السهل تحديد تأثير العقائد بالأحداث، ولكنّ تأثير الأحداث بالعقائد والأفكار يبدو واضحًا للعيان، خصوصًا إذا تعلّق الأمر بما يحصل بين الغالب والمغلوب، ومن ثَمّ لا يصحّ عزو الأحداث إلى العقائد والأديان دائمًا، لكن الذي لا شكّ فيه أنّ الأحداث حين تتوالى على وتيرة واحدة فإنّها تؤثر في العقائد والأفكار، فالنجاح على أيِّ صعيد يُعزِّز من ثقة الأمّة بمنطلقاتها الفكرية وأصولها النظرية، كما أنَّ الانحطاط والتخلّف قد يعود على تلك الأصول بأعظم الضرر.

فإذا كانت الحالة الحضارية متردِّية كانت الدعوة أشقَّ، وكان طريقها أكثر وعورة؛ لأنَّ النفس البشرية تميل إلى تعظيم الغالب وامتهان المغلوب، وبمنطق ابن خلدون فالمغلوب يقلّد الغالب بكلّ الجوانب حتى العقائدية منها ، ومع هذا لا بدّ لنا من التأسِّي بسيرة نبينا الكريم ﷺ عندما كان يدعو كبرى الإمبراطوريات في زمانه، وحالُ المسلمين في ذلك الوقت لا تقارَن بتلك الإمبراطوريات من حيث ميزان القوى العسكري والحضاري، ولكن كان لدى المسلمين عاملُ قوةٍ حقيقي يتمثّل في تمسُّكهم بالعقيدة التي آمنوا بها، وعرفوا بها حقائق الأمور فهانت دنيا الروم والفرس في أعينهم، وذهبوا إليهم دعاةً مشفقين، غير مُنهزمين ولا منبهرين، فكان لهم ما عملوا لأجله.

كما أن حالة التردِّي الحضاري قد تكون سببًا إضافيًا لقبول الدعوة في بعض المجتمعات أو عند بعض الشخصيات؛ وذلك أنَّ حال اليأس من الواقع والضيق بما وصل إليه من حالٍ مزرية، كثيرًا ما يدفع للبحث عن حلول في دياناتٍ وثقافات أخرى، أو يجعلها تعيد النظر فيها على الأقل، فتكون فرصة كبيرة لدعوة هؤلاء وعرض محاسن الإسلام وحلوله الناجعة لمشاكلهم.

> **إذا جئنا إلى ميزان الغالب والمغلوب، فنحن لسنا بصدد الاستغراب من عدم انتشار الإسلام بسبب تأخُّر المسلمين في الحضارة وأسباب القوّة المادية، بل ما يُثير الانتباه والدهشة هو كون الإسلام أسرع الأديان انتشارًا وهو في أضعف حالاته!**

تباشير الأمل والفرص السانحة:

دين الله تعالى هو دين الفطرة الذي تقبله النفس البشرية وتجد فيه ما يلبِّي حاجاتها الروحية، ويجيب عن أسئلتها المصيرية، إضافةً إلى التماسك المجتمعي الذي يحدثه الإسلام إذا تشرَّبه المسلمون وحوَّلوه إلى منهج حياةٍ وواقع مُعاش، وهذه نقاط قوّةٍ لا تمتلكها أية عقيدةٍ أليوم على مستوى العالم أجمع، وحسبنا بها من قوّةٍ لا تُقهر.

وإذا جئنا إلى ميزان الغالب والمغلوب، فنحن لسنا بصدد الاستغراب من عدم انتشار الإسلام بسبب تأخُّر المسلمين في الحضارة وأسباب القوّة المادية، بل ما يُثير الانتباه والدهشة هو كون الإسلام أسرع الأديان انتشارًا وهو في أضعف حالاته! وسرعة الانتشار هذه ليست في أطراف العالم فحسب، بل في عُقر دار الدول الغربية المهيمنة على مقاليد السياسة والاقتصاد والقوّة العلمية والعسكرية، فكيف يحصل هذا والمسلمون اليوم في أسوأ مراحلهم الحضارية منذ أن أشرقت شمس النبوّة من مكة المكرمة؟! لا شكَّ أنَّ هذه الظاهرة هي معجزةٌ بحدِّ ذاتها، وهي باعثٌ عظيم على الأمل[2].

(١) ينظر كتاب (مقدّمات للنهوض بالعمل الدعويّ) للدكتور عبد الكريم بكّار.
(٢) ينظر: مقال (هل ستنتصر أمة الإسلام حقًّا؟) للدكتور عمر النشيواتي في العدد الثالث عشر من المجلة.

الشباب حملة الدعوة ومصابيح الأمل:

والناظر في حال الأمّة اليوم يلمسُ شيئًا من بوادر اليأس واستطالة الطريق، بسبب قوّة الأعداء، وفُرقة الأمّة، وفي ذات الوقت لا يمكننا القول بفقدان الأمل بشباب الأمّة، بل على العكس.. فالشباب اليوم يضرب أروع الأمثلة في حمل همَّ هذا الدين بكلِّ صدقٍ وإخلاصٍ، ويعمل جاهدًا على نشره وتمكينه وجعلِ كلمة الله هي العليا، نعم قد يفتقدون للمنهجية الواعية لهذا العمل، لكنّ تضحياتهم وبطولاتهم لا تخفى، فهذه ثورات الربيع العربي التي قادها الشباب وسطّروا فيها صفحات ناصعة من الهمّة والبذل والوعي تعطينا أملاً في عودة الأمّة إلى سابق مجدها بسواعد الشباب الطامح لتغيير هذا الواقع.

> **تقنيات التواصل المتقدمة وانتشار المعلومة بشكل كبير سلاح ذو حدّين: فهو من جهة يسهل علينا إيصال ما نريده بأقل جهد ممكن، ومن جهة أخرى يعرض شباب الأمة لسيل من الأفكار والشبهات والشهوات التي لا بد من مقاومتها وصدِّها**

التقنيات المعاصرة لك وعليك:

العمل الدعوي اليوم يتطلب منّا جهودًا كبيرة أكثر من أيّ وقت مضى، لأنّنا نعيش في عالم مفتوح لا حواجز فيه في ظل تقنيات التواصل المتقدمة وانتشار المعلومة بشكل جنوني، وهذا الوضع الذي نعيشه سلاح ذو حدّين:

الحدُّ الأول: هو سهولة إيصال ما نريده بأقلِّ جُهدٍ ممكنٍ وبالسرعة الخارقة إلى كلّ بقاع الأرض، وهي فرصةٌ استثمرها كثيرون أفرادًا ومؤسسات، فعملوا على تقريب الدين وتحرير إجاباتٍ وافيةٍ عن الأسئلة الشائعة عن الإسلام بلغات كثيرة، وبيان الفروقات بينه وبين العقائد والأيديولوجيات الأخرى، وكيف أنَّ الإسلام هو الدين الوحيد الذي يجيبِ عن الأسئلة الوجودية والغائية إجاباتٍ وافيةً عادلةً يقبلُها العقل ويطمئنُّ لها.

والحدُّ الثاني: هو هذا الكمُّ الهائل من العواصف والتيّارات التي يتعرَّض لها شباب الأمّة في عقيدتهم وقيمهم وأخلاقهم وثقافتهم، وهذه العواصف قادمةٌ إلينا من الباب ذاته، وهذا يضعُنا أمام تحدِّيات كُبرى على المستوى الحضاري الذي من خلاله نحاول الثبات في وجه تلك التيارات، وتحقيق التقدّم بقدر الإمكان.

مصعب بن عمير الداعية النموذج:

لا يمكن الحديث عن الدعوة والدعاة دون ذكر الداعية النموذج في صدر الإسلام «مصعب بن عمير» الصحابيّ الجليل ﷺ؛ فهو خيرُ مَن يُورَد مثالاً عمليًا يُحتذى به، فكثيرًا ما نغفل عن نقطة مهمّة في سيرة النبيّ ﷺ، والتي تفسِّر كيف خرج أهل المدينة عن بكرة أبيهم لاستقبال رسول الله عندما هاجر إليهم؟ وهم الذين لم يقابله منهم قبل هجرته إلى المدينة أحد باستثناء فئةٍ قليلةٍ منهم بايعوه في بيعتي العقبة الأولى والثانية؟! فمن الذي أوصل لهم هذا الدين حتى آمنوا وبايعوا؟! إنّه الداعية الشاب مصعب بن عمير ﷺ.

لا شكَّ أنّ النبي ﷺ لم يختَرْ مصعبًا عشوائيًا، بل لأنَّه اجتمعت فيه صفات الداعية الناجح: من العلم بما جاء به النبي ﷺ، والحكمةِ في التعامل مع المواقف الصعبة، ومن الأمثلة: على ذلك حسن تصرُّفه مع أُسيد بن حضير الذي جاء لقتله فخرج من مجلسه مسلمًا[1]، وخبرتِه في التعامل مع الأقوام الأُخرى فقد هاجر مرّتين إلى الحبشة، فضلاً عن أنّه كان من أشراف مكة وأغنيائها، وهذا سهَّل له مهمّة التعامل مع أشراف المدينة وساداتها وهم الذين يملكون القبول عند الناس بجميع فئاتهم؛ فاستهدفهم بدعوته حتى تبعهم الناس، وبذلك كان إسلام الأنصار في صحيفة أعماله ﷺ، واستمرّ في دعوته وجهاده حتّى استُشهد وهو لا يملك كفنًا، بعدما كان من أغنياء مكة، فكان النموذج الأمثل لما يمكن أن يكون عليه الداعية في كلّ زمان ومكان.

خلاصة القول:

بعد تبيان وتمحيص ما يجب أن نكون عليه وما يجب أن نَعِيَه لكي نصل للهدف المنشود من دعوتنا، علينا أن نعلم أنَّ كلاً منّا داعيةٌ إلى الله من موقعه، والدعوة تبدأ من النفس، ثم بالأقرب فالأقرب، ممن في محيطِنا من الأسرة والطلاب والعمال والجيران، ... وهكذا، والله لا يكلّف نفسًا إلا وُسعها.

إنّ كلَّ مسلم يمكنه أن يدعو إلى الله بقوله وفعله وبالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبأن يجعل من نفسه قدوة للآخرين بالتزامه بشعائر الإسلام وأخلاقه، في البيت والحي والقرية والمدرسة والوظيفية والمعمل والمزرعة، وهذه الإمكانية تجعل الدعوة (واجبًا شخصيًا) علينا القيام بها على أكمل وجه، وأن نعمل على استكمال جميع العناصر المطلوبة لإنجاح هذا الواجب من علم ومعرفة وعمل وهمّة وصدق وإخلاص، وبالمقابل فلسنا مطالبين بالنتائج، والله تعالى يقول لنبيه الذي بلغ الغاية في الكمال البشري: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨] وهذه الفكرة مهمةٌ جدًا لمواصلة الطريق وتحمُّل تبعاته، فنتاج العمل ليس من مسؤوليتنا بعد بذل الوسع واستفراغ الجهد في أداء المهمة على أكمل وجه، ومن أهمّ الأمور في العمل الدعوي: إخلاص النيّة لله، فصدق النيّة يفتح الله به القلوب التي هي بين أصابع الرحمن يقلبها كيفما شاء ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

(١) سيرة ابن هشام (٤٣٦/١).

معركة الإرادة والدّوبامين في رمضان

د. وائل الشيخ أمين (*)

خلق الله الإنسان وأودع فيه أسرارًا كثيرة، وأمره بالتفكُّر والتبصُّر في خلقه، لعل ذلك يهديه إلى معرفة الله وإدراك الحِكَم من تشريعاته مما يزيد من يقينه ويُعين على عبادته، وهذه الأسرار تتكشَّف يومًا بعد يوم كُلَّما تقدم العلم، ومعرفتُها تُفيد في تهذيب النفس والسموِّ بها نحو معالي الأمور، حيث يترفَّع الإنسانُ عن الطباع الرذيلة والأخلاق الوضيعة، وتكمل فيه صفات العزة والإرادة والحرية.

مدخل:

رمضان شهرٌ صمّم الله لك فيه عباداتك، ووزّع فيه أوقاتك، وأرشدك إلى ما يجب أن تفعل فيه وتترك، ووعدك -وهو أعلم بك منك- أنّك لو فعلت ذلك على وجهه فإنّك سوف تنجح في تغيير نفسك، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

ثم زاد في تحفيزك بتعظيم الأجر والثواب في كلّ عملٍ صالح تفعله في رمضان عامّة، وفي العشر الأواخر وليلة القدر خاصّة. ثم صوّر لك أنّ الأمر يسير فلا تعجز، وأنّ الفرصة نادرة وقد تفوتك، فوصف رمضان بأنّه: ﴿أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾!

بعد كلّ هذا، كم هو محروم مَن فاته العمل في رمضان!

شرع الله الصيام لحِكَمٍ عظيمة، لا شكَّ أنَّ المقصد الأول منه: التقوى، والذي يتحقَّق بالامتناع عما نهى الله عنه من المباحات والمحرمات، بالإضافة لفعل الطاعات، كما أنَّ من الحكم المهمّة: تقوية الإرادة وتحقيق الصبر، وهو ما سيتناوله هذا المقال، من خلال النظر في آخر ما توصل إليه علم الأعصاب وعلم النفس؛ ليَخْلص إلى فهمٍ عميقٍ للسلوك البشري، وللعادات والإدمان بشكلٍ خاصّ، وبعض القواعد العملية المساعدة على التغيير، وكيف يمكننا استثمار شهر رمضان لهذا التغيير.

(١) مؤسس ومدير أكاديمية عين.

المقصد الأول من تشريع الصيام هو التقوى، والذي يتحقّق بالامتناع عما نهى الله عنه من المباحات والمحرمات، بالإضافة لفعل الطاعات، كما أنّ من الحكم المهمّة: تقوية الإرادة وتحقيق الصبر

الدوبامين كلمة السرّ في السلوك الإنساني:

عندما نغوص في علم الأعصاب لنفهم كيف تتشكّل العادة والإدمان، ولماذا يصبح البعض مثل العبد، تأسره العادة فلا يملك إلّا أن يُساق لها، فإنّنا لا بد أن نقف وقفةً طويلةً مع كلمة السرّ وهي: الدوبامين.

هنالك اعتقاد شائع أنّ الدوبامين هو هرمون السعادة وهذا غير صحيح، بل الدوبامين هو ناقل عصبي كيميائي يولّد في الإنسان الرغبة ليقوم بسلوكٍ يجلب له المتعة[١].

حتى تكون الأمور أكثر وضوحًا لا بدّ من إطلالة على ما يُسمّى بحلقةِ تَشَكُّل العادة أو ما يُسمّى أيضًا بنظام المكافأة، وهي ما يُفسّر تحوّل سلوكٍ ما إلى عادةٍ أو إدمان، أي أنّ حلقةَ تَشَكُّل العادة تجيب على سؤال: لماذا تتحوّل بعض السلوكات إلى عادات أو إلى إدمان فيما لا يتحوّل غيرها!؟

معظم الناس يعتقدون أنّ تكرار السلوك كفيلٌ بتحويله إلى عادة وهذا غير دقيق، فالعادة لا تتشكّل نتيجة تكرار السلوك، بل نتيجة تكرار: حَلَقَة تشكُّل العادة.

وهذه الحلقة تتألّف من ثلاثة أجزاء هي:

١. الإشارة: وهي الحدث الذي يولّد فينا الرغبة لنقوم بالسلوك الذي سيتحوّل إلى عادة.

٢. السلوك.

٣. المكافأة: وهي المتعة التي يشعر بها الإنسان بعد قيامه بالسلوك[٢].

لنأخذ مثالاً على ذلك: عادة متابعة وسائل التواصل الاجتماعي، ونطبّق عليها أجزاء حلقة العادة:

١. الإشارة: وهي ما يولّد فيك الرغبة بفتح الفيسبوك أو غيره من وسائل التواصل الاجتماعي، فقد تكون الإشارة مشاهدة غيرك يمسك جواله، أو قد تكون سماعك لصوت إشعار لتعليق أو رسالة.

٢. السلوك: هو دخولك وتصفّحك.

٣. المكافأة: التسلية التي تحصل عليها، أو تقدير الذات نتيجة الثناء الذي تتلقّاه من الآخرين على منشوراتك، أو المتعة والتسلية لمشاهدتك بعض المقاطع.

العادة لا تتشكَّل نتيجة تكرار السلوك فحسب، بل نتيجة تكرار حَلَقَة تشكُّل العادة، ولذلك تحرص شركات التكنولوجيا أن تصمّم منتجاتها بما يحقّق حلقة تشكُّل العادة، وهذا يفسّر كثرة استعمال الناس لها، وإدمانهم عليها

كلّ سلوك يحقّق حلقة تَشَكُّل العادة، يمكن أن يتحوّل إلى عادة، بل يمكن أن يتحوّل إلى إدمان، ولذلك تحرص شركات التكنولوجيا المصنّعة لوسائل التواصل الاجتماعي والألعاب الالكترونية أن تصمّم منتجاتها بحيث تحقّق حلقة تشكُّل العادة وهذا يفسّر كثرة استعمال الناس لها، بل وإدمانهم عليها، حتى صارت تصنّف عالميًا على أنّها إدمان![٣].

حتى إنّ الكاتب «آدم إلتر» ذكر في كتابه (لا يُقَاوَم) إحصائيات مخيفة عن انتشار هذا الإدمان، منها أنّ الصين فيها أكثر من ٤٠ ألف مركز طبي لمعالجة مدمني الإنترنت![٤].

لنعد إلى الدوبامين، ودعني أسألك هذا السؤال:

في أيّ مرحلة من المراحل الثلاثة لحلقة تشكُّل العادة يُفرز الدوبامين؟

الاعتقاد الشائع عند الذين يُسمّون الدوبامين بهرمون السعادة أنّه يُفرَز بعد حصولنا على المكافأة وهذا غير صحيح، بل يُفرَز الدوبامين بعد المرحلة الأولى، أي بعد حصول الإشارة؛ فيولّد

(١) Molecular Neuropharmacology: A Foundation for Clinical Neuroscience .
(٢) قوة العادة لتشارلز دوهيج.
(٣) مصيدة التشتت لفرانسيس بوث.
(٤) Irresistible, Adam Alter .

فينا الرغبة لنقوم بالسلوك. ففي مثالنا الأخير عن عادة متابعة وسائل التواصل الاجتماعي: يتمّ إفراز الدوبامين عند سماعنا لصوت إشعار أو رسالة مما يولّد فينا الرغبة لندخل في السلوك.

هل عرفت الآن لماذا قلت: إنّ الدوبامين هو كلمة السرّ في السلوك الإنساني؛ لأنّه لولا الدوبامين ما تولّدت فينا الرغبة لفعل أي شيء!

لولا الدوبامين الذي أودعه الله فينا لما استطعتُ أن أكتب هذا المقال، ولما استطعتَ أنت أن تقرأه، بل لولا الدوبامين لما درستَ ولا عملتَ ولا مارستَ الرياضة ولا سافرتَ ... إلخ.

ربّما تظنّني مبالغًا في توصيفي، لكنّي ما وصفت الأمر على حقيقته بعد!

في عام ١٩٥٤ أجرى عَالِمَا الأعصاب «جيمس أولدز» و«بيتر ميلنر» تجربة على الفئران حيث منعا إفراز الدوبامين عندها، العجيب أنّ الفئران فقدت الرغبة في عمل أيّ شيء تمامًا، حتى الأكل.

كان الأكل بجوارها ومع ذلك لم تأكل، ماتت الفئران من الجوع ولم تأكل![1]

فمن أجل المحافظة على بقائنا: فإنّ الدوبامين يُفرز بكمّيات كبيرة ليدفعنا نحو السلوك الغريزي الذي يحافظ على بقائنا مثل الأكل والشرب، والجنس (الذي يحافظ على بقائنا كنوع إنساني لا كأفراد)، والهربِ عند تعرّضنا للخطر.

لكن بعيدًا عن السلوكات الغريزية، متى يتم إفراز الدوبامين بكميات كبيرة؟

يتناسب إفراز الدوبامين طردًا مع أمرين:

١. القيمة المتوقّعة للمكافأة اللحظية: أي أنّ دماغنا بعد تعرّضه للإشارة التي تذكّره بالسلوك، سيتذكّر التجارب السابقة له معها، فإذا كانت تلك التجارب ممتعة، عندها سيُفرز كميات كبيرة من الدوبامين حتى يدفعك أكثر لتقوم بهذا السلوك؛ لأنّ دماغنا يحبّ المتعة!

على سبيل المثال: طلب منك مجموعة من أصدقائك أن تلعب معهم لعبةً ما؛ فشاركتهم فيها، ثم بعد بضعة أيام عاودوا ذلك الطلب، هنا يتوقّف إفراز الدوبامين على القيمة المتوقّعة للمكافأة، فلو كانت تجربتك الأولى معهم ممتعة جدًّا سيتم إفراز كميات كبيرة من الدوبامين، وإلا فالعكس بالعكس.

٢. سهولة السلوك: كلّما كان السلوك المطلوب للحصولِ على المتعة أسهل، كانت كمّية الدوبامين المفرزة أكبر. على سبيل المثال: الألعاب الإلكترونية يعتاد عليها الإنسان بسرعةٍ أكبر من الألعاب الحركية الرياضية لأنّها أسهل، ولذلك تُفرز لأجلها كمّياتٌ كبيرة من الدوبامين.

حقيقتان عن دماغ الإنسان لا تنسهما: (كسول، ويحب المتعة).

ولذلك فإنّه يفرز كمّيات كبيرة من الدوبامين تجاه أيِّ سلوك يجلب له متعةً كبيرة، ولا يتطلَّبُ جهدًا كبيرًا، مثل بعض الألعاب الإلكترونية، والمواقع الإباحية، والمخدّرات!

وهذا ما يفسّر تشكّل بعض العادات بسرعةٍ كبيرة، حيث إنّ العادات من الناحية العصبية هي عبارةٌ عن مسارات (طرق) عصبية يفضّل الدماغ السير فيها، عن السير في غيرها؛ لأنّها أسهل وأكثر مُتعة، هذه المسارات تتشكّل بسرعة كلما:

- قمت بتكرار حلقة تَشَكُّل العادة أكثر.
- أُفرزت كمّيات أكبر من الدوبامين.

إذا أردت أن تبني عادةً فلا بدّ لك أنّ تصمم حلقة تَشَكُّل العادة الخاصّة بها، وأن تحرص على أن تكونَ مستمتعًا حين قيامك بالسلوك، لأنّ هذا الاستمتاع سيجعل الدماغ يُفرز كمّيات كبيرة من الدوبامين في المرّات التالية مما يجعلك متحمسًا مستمتعًا للقيام به

ولذلك فإذا أردت أن تبني عادةً فلا بدّ لك من مراعاة هذين الأمرين:

أوّلاً: أنّ تصمم حلقة تَشَكُّل العادة الخاصّة بها. لا تَقُل: سأقرأ كلّ يوم، بل اربط السلوك بإشارة وقُل: سأقرأ كلّ يوم بعد فنجان القهوة الصباحي مثلاً.

ثانيًا: احرص على أن تكونَ مستمتعًا حين قيامك بالسلوك، لأنّ هذا الاستمتاع سيجعل الدماغ

(١) العادات الذرية لجيمس كلير.

يُفرز كمّيات كبيرة من الدوبامين في المرّات التالية، ممّا يساعد على سُرعة تشكيل المسارات العصبية للعادة الجديدة.

أي لو كانت كمّيات الدوبامين عاليةً لديك فهذا يجعلُك متحمّسًا في حياتك، مستمتعًا بها، وأكثرَ قدرةً على تشكيل عاداتٍ إيجابيةٍ جديدة.

لكن ماذا لو كانت كمّيات الدوبامين الموجودة لديك قليلة بالعموم!؟

انخفاض مستوى الدوبامين يعني انخفاض الرغبة والدافع للقيام بسلوكٍ ما، فإذا كان الانخفاض عامًّا فهذا يعني فقدان الرغبة في القيام بأيّ شيء! ولعلّك مررت بمثل هذه اللحظات، حالةٌ من الملل الشديد وعدم الرغبة في فعل أيّ شيء، مهما رآه غيرك ممتعًا ومثيرًا.

ماذا لو انخفض الدوبامين أكثر!؟

عندها قد يدخلُ الإنسان في مرض الاكتئاب، وهو فُقدان الرغبة في فعل أيّ شيءٍ في الحياة، وقد يتطوّر الأمر إلى فقدان الرغبة في الحياة نفسها، والانتحار.

لكن ما الذي يجعل كمّيات الدوبامين تنخفض في الجسم؟

لذلك عدّة أسباب، منها: مَرَضِيٌّ كمرض ألزهايمر، ومنها متعلّق بنقص التغذية أو تعاطي بعض الأدوية، وكلّ مما سبق لا يهمّ معظم الناس، إلا أنّ هنالك سببًا شائعًا اليوم يجعل غالبية الناس في عصرنا يعانون من انخفاض مستوى الدوبامين في جسمهم!

لكن قبل أن أذكر السبب دعنا نتعرف على الدوبامين أكثر، وقد سبق أن عرفناه على أنّه ناقل عصبي كيميائي، فما المقصود بذلك؟

النواقل العصبية الكيميائية هي مواد كيميائية يفرزها الدماغ ثم تنتقل من خلية عصبية إلى خلية عصبية أخرى حاملة معها رسائل معيّنة، قد تكون هذه الرسائل حسّية كالإحساس بالألم أو الصوت أو المذاق، وقد تكون الرسائل حركيةً لتحريك عضلةٍ ما.

تنتقل هذه النواقل من خليةٍ إلى أخرى في المنطقة التي تتشابك فيها نهايات الخليّتين العصبيّتين مع بعضهما، تسمّى هذه المنطقة بالمشبك العصبي، حيث تقوم خلية بإفراز النواقل العصبية الكيميائية فتستقبلها الخلية الأخرى عبر ما يسمّى بالمستقبِلات، بحيث يكون لكلّ ناقلٍ عصبي كيميائي مستقبِلٌ خاصٌّ به يتعرّف عليه ثم يدخله إلى خليته لينتقل إلى غيرها وهكذا.

الدوبامين هو أحد هذه النواقل العصبية ا لكيميا ئية .

ما الذي يجعل مستوى الدوبامين اليوم منخفضًا إذًا!؟

قبل أن أجيبك سأحكي لك موقفًا حصل معي ومع كثيرين غيري، حيث إني قبل سنوات قرّرت أن أُقلع عن تناول السكر والحلويات تمامًا، وذلك بعد أن عرفتُ أضرارها، وبعد قرابة أسبوعين من إقلاعي هذا، جربت أن آكل قطعةً من الشوكولاتة فتفاجأتُ عندما أكلتُ أول قضمةٍ منها بأنّها حُلوةٌ جدًّا إلى درجة غير مقبولة، لدرجةٍ أني ما استطعتُ إتمام أكلها، على الرغم من أني كنتُ سابقًا مكثرًا منها وربما آكل قطعتين في وقت واحد.

ما تفسير هذا!؟

لقد صرتُ أكثر حساسيةً تجاه الحلويات بعد امتناعي عن تناولها لعدّة أيام، وتفسير ذلك: أنّ في الفم خلايا عصبية تُسمّى براعم التذوق، هذه الخلايا هي التي تنقل إحساس الطعام الحلو والحامض والمرّ وغيره، ولكن حتى تنقُلَ هذه الخلايا أيَّ إحساس يجب أن يكون بتركيز معيّن يُسمّى عتبة الإحساس، فلو كان تركيز الطعم الحلو تحت عتبة الإحساس فإنّ براعم التذوّق لا تتعرّف عليه ولا تنقل مذاقه، وعندها قد يأكل الإنسان شيئًا حلوًا لكنّه لا يشعر بحلاوته لأنّ التركيز دون العتبة.

لكن ماذا لو أنّك أدمنت على تناول الحلويات، وصرت تأكلها بكميات كبيرة وتراكيز عالية؟! عندها سيقوم الجسم بالتكيّف مع الوضع الجديد، ويرفع عتبةَ الإحساس إلى مستوىً جديد! وعندها ستأكل طعامًا حلوًا جدًّا ولن تشعر بأنّ حلاوته مزعجة.

رفْعُ عتبة الإحساس سيجعلك أقلّ إحساسًا بالطعم الحلو، أي أنّك لو أكلت من الفواكه فلن تشعر بحلاوتها كما هي، بل ربما لن تشعر بحلاوتها أبدًا لأنّ تركيز الطعم الحلو فيها أقلّ من عتبة الإحساس الجديدة لديك.

وكما يقال: كثرة المساس تُميت الإحساس.

حَلَقَة تشكُّل العادة

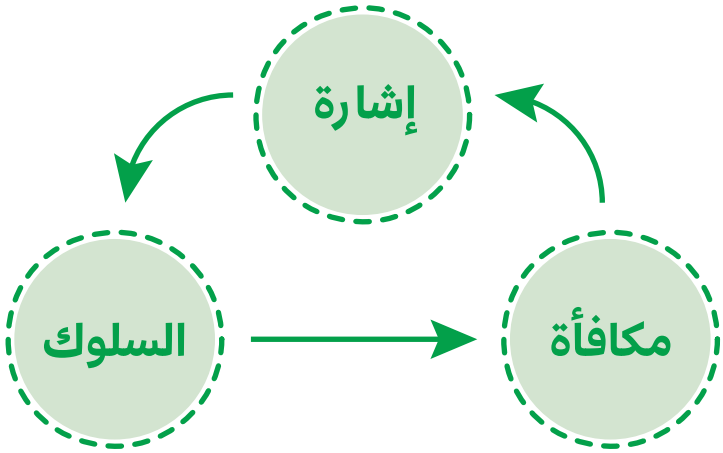

لكنّك لو امتنعت عن الحلويات لعدّة أيام فإنّ هذه المستقبلات تبدأ باسترداد عافيتها وتعود إلى حساسيتها الأصلية وترجع عتبة الإحساس لديها طبيعية، وحينها ستشعرُ بطعم الفواكه أكثر، وحينها ستزعجُك قضمةٌ واحدة صغيرة من الحلوى.

لكن ما علاقة الحلويات وبراعم التذوّق بالدوبامين!؟

ما جرى على براعم التذوق هو ما يجري على مُستقبلات الدوبامين، أي أنّ هذه المستقبلات عندما تتعرّض لكمّيات كبيرة من الدوبامين فإنّها تضعف حساسيتها ويقلّ تأثرها، وبالتالي لا تولّد الرغبة كما كانت، ويصبح الإنسان بحاجة إلى كمّيات أكبر من الدوبامين حتى تتولّد الرغبة في داخله.

فما الذي يجعل الدوبامين اليوم يُفرَز بكمّيات كبيرة عند الكثير من الناس؟

إنّها ثلاثية الإدمان على التكنولوجيا: (وسائل التواصل الاجتماعي، والألعاب الإلكترونية، والمواقع الإباحية).

إدمان واحدة من هذه المواقع والتطبيقات أو أكثر يجعل الدماغ يفرز كمّيات هائلة من الدوبامين لم تكن مستقبلات الدوبامين معتادة عليها؛ ممّا يؤدي إلى تخريب حساسيتها، وينتج عن ذلك أنَّ الدوبامين يُفرَز بكمياتٍ كبيرة لكنّه مع ذلك لا يقوم بدوره.

> **للإدمان تأثير خطير على البشر، فهو يجعل الدماغ يفرز كمّيات هائلة من الدوبامين لم تكن مستقبلات الدوبامين معتادة عليها؛ ممّا يؤدي إلى تخريب حساسيتها، وهذا بدوره يفسد دافعية الإنسان لأي عمل إيجابي أو منتج؛ لأنَّ الكميات العادية من الدوبامين لم تعد تقوم بدورها في التحفيز**

عندها تصبح الكميات الطبيعية من الدوبامين لا تولّد في الإنسان أيّ رغبة لأنْ يقرأ مثلاً أو يتعلّم مهارةً جديدةً، أو يمارس رياضةً مفيدة ...إلخ.

هي ذاتُها الأعراض التي تظهر على مُدمني المخدّرات وللسبب ذاته تمامًا، حتى أنّ «غاري ويلسون» ذكر في كتابه: (دماغك تحت تأثير الإباحية) أنّ التغيّرات التي تطرأ على الدماغ نتيجة إدمان الإباحية شبيهة بتلك التغيرات التي تحصل نتيجة إدمان المخدرات![1]

فما هو الحل!؟

(١) دماغك تحت تأثير الإباحية، لغاري ويلسون.

صوم الدوبامين:

لعلّ قصّة الامتناع عن تناول الحلويات لعدّة أيام قد ألهمتك الحلّ مع مشكلة الدوبامين.

الحلّ هو «صوم الدوبامين»، ويُقصد به: أن تُخفّف من تعرّض مستقبلات الدوبامين للجرعات الكبيرة من الدوبامين حتى تستعيد حساسيتها الأصلية.

ولا شكّ أنّ مصطلح «صوم الدوبامين» هو تعبير مجازي لا يُقصد به المعنى الحرفيُّ للكلمة، بل يمكنك أن تقول: إنّك ستجعل مستقبلات الدوبامين هي من ستصوم عن استقبال الكميات الكبيرة من الدوبامين.

كيف تفعل ذلك؟

بأن تقلّل من استعمالك لما يفرز كمّيات كبيرة منها، ويأتي في مقدّمة ذلك: إدمان الجوال، يمكنك أن تخصّص يومًا في الأسبوع، بدون جوال نهائيًّا، أو أن تخصّص عددًا معينًا من الساعات اليومية بدون جوال، والخيار الأخير أفضل، لأنّه يتحوّل بعد فترة إلى عادة يسهل الحفاظ عليها.

لو أنك نجحت في «صوم الدوبامين» فهذا سينعكس إيجابيًّا على جوانب عديدة في حياتك منها :

١. ستخفّف من مضيعتك لوقتك بدون فائدة.

٢. عودة الحساسية لمستقبلات الدوبامين إلى المستوى الطبيعي سيجعلك أكثر قدرة على بناء عاداتٍ إيجابيةٍ جديدة لأنّ كلمة السر (الدوبامين) عادت لعملها.

٣. ستشعر بمتعة أكبر في نشاطاتٍ حياتيةٍ كنت قد فقدت الكثير من متعتها بسبب تخرّب حساسية مستقبلات الدوبامين.

> **نحن في معركة دائمةٍ بين الدوبامين الذي يدفعنا أحيانًا لننغمس في المعاصي وفي إضاعة أوقاتنا بغير طائل من جهة، وبين قوّة إرادتنا التي تحاول أن تستلم زمام الأمور لننجح في الدنيا والآخرة، ولذلك كلّما استطعنا أن نزيد من قوّة إرادتنا كان احتمال انتصارنا في هذه المعركة أكبر**

معركة الإرادة والدوبامين:

قلنا إنّ «صوم الدوبامين» يساعد على بناء عاداتٍ إيجابية، لكن ماذا عن العادات السيئة؟

ماذا نصنع مع الكميات الكبيرة من الدوبامين التي تتدفّق لتدفعنا بشكل قهري لننغمس في عاداتنا السيئة وإدماناتنا؟

ما الذي يجعلنا نستطيع أن نقول: لا!؟

أن نترك هذه الرغبة، ونمضي في طريق آخر!

إنّها قوة الإرادة! وهي محطّ اختبارنا في هذه الدنيا، أن نتغلّب على الشهوات والإغراءات ونمضي في الطريق الصحيح.

أي أنّنا في هذه الحياة نكون في معركة دائمةٍ بين الدوبامين الذي يدفعنا أحيانًا لننغمس في المعاصي وفي إضاعة أوقاتنا بغير طائل من جهة، وبين قوّة إرادتنا التي تحاول أن تستلم زمام الأمور لننجح في الدنيا والآخرة.

ولذلك كلّما استطعنا أن نزيد من قوّة إرادتنا كان احتمال انتصارنا في هذه المعركة أكبر، فكيف يمكننا أن نفعل ذلك!؟

يُسمِّي بعض العلماء قوّة الإرادة بعضلة الإرادة، والمقصود بهذه التسمية التركيزُ على ميزةٍ مهمّة في قوّة الإرادة تشترك فيها مع العضلات وهي:

أنّه يمكننا أن نزيد من قوّة إرادتنا أو أن نُضعفها كما العضلات، نزيدها كلّما استعملناها أكثر، ونُضعفها كلّما أهملناها ولم نستعملها[1].

فما هي تمارين عضلة الإرادة!؟

كلّ استعمال لقوّة الإرادة هو تمرين لتقويتها، كلّ جولةٍ في معركة الإرادة مع الدوبامين هي تمرين لزيادة قوّة هذه العضلة.

مثل محاولة اكتساب عادات جديدة، أو التخلّي عن العادات السيئة، أو تعلّم أمور ومهارات جديدة.

ومن التمارين أيضًا أن تتحكّم في انفعالاتك، أن يُسيء إليك أحدهم فلا تردَّ الإساءة، أن تغضب فتكظم غيظك أو تعفو عمّن أغضبك، أن ترغب في قول كلامٍ فيه فحش ثم تمسك لسانك.

إلا أنّ أحدَ أهمّ تمارين عضلة الإرادة وأكثرها فعاليةً هو: الحرمان!

(١) Willpower, Roy F.Baumeister.

أنْ تحرم نفسك مما تشتهي، أنْ يتدفّق الدوبامين رغبةً في أمرٍ ما، ثم تحرم نفسك منه!

هنا نرى أنّ صوم رمضان هو دورةٌ تدريبيةٌ طويلةٌ لتقوية عضلة الإرادة، لكن لمن يحسن أن يؤدّي الصيام على وجهه!

> **لو أردت أن تخرج بأكبر فائدة ممكنة من صوم رمضان، فعليك ألا تنسى أنّ الصوم هو معركة بين إرادتك وبين شهواتك، وهذه المعركة لا ينحصر ميدانها في الطعام والشراب، بل يتعدّاها لكلّ جوانب حياتك اليومية، والتي يأتي على رأسها اليوم تعاملك مع الإنترنت**

بين صوم رمضان وصوم الدوبامين:

الصوم هو عبادة الترك! فأنت تؤجر لأنَّك تترك فعل أشياء تشتهيها النفس، وتؤجر لأنَّك تحرم نفسك مما تشتهيه إرضاءً لله سبحانه وتعالى.

وكلّما منعت نفسك مما تشتهيه فإنّ عضلة الإرادة لديك سوف تقوى، وكلّما قويت صارت أكثر قدرةً على الانتصار في معركتها في وجه الدوبامين الذي يتدفّق من أجل أن يغمسك في المعاصي.

فعندما تصوم، تقوى إرادتُك، فيساعدُك ذلك على الانتصار في معركتك على الدوبامين الذي يدفعنا للإدمان والانغماس في عاداتنا السيئة، مما يقوي قدرتك على الامتناع عن شهوات النفس، ولعل هذا يفيدك في معركة التقوى بعد رمضان.

والنبي ﷺ لم يكتفِ بالنهي عن مفسدات الصوم، بل وجّه المسلمَ توجيهاتٍ كفيلةً بتعديل سلوكه الذي اعتاد عليه قبل رمضان، انظر مثلًا إلى توجيهاته ﷺ للصائم أثناء صومه في قوله: (إذا أصبحَ أحدُكُم يَومًا صائِمًا، فلا يَرْفُثْ ولا يَجهَل. فإنِ امْرُؤٌ شاتَمَهُ أو قَاتَلَهُ فَلْيَقُل: إنِّي صَائِمٌ)[1].

والتوجيه يقتضي أن تقاوم رغباتك الانفعالية، بأن تتحكّم بذاتك وسلوكك فلا تكون منجرًّا وراء دفقات الدوبامين، بل أن تكون مسؤولاً عن سلوكك مالكًا له.

لكن ماذا لو أنّك كنت في رمضان، تصوم عن الطعام والشراب، ثم تمضي وقتك على التكنولوجيا بين المواقع والتطبيقات والألعاب!

أيّ إرادة هذه التي سوف تقوّيها، وأنت تُهزم في معاركك مع رغباتك وشهواتك (الدوبامين)!؟

إنّك لو أردت أن تخرج بالفائدة الأكبر من صوم رمضان، فعليك ألا تنسى أنّ الصوم هو معركة بين إرادتك وبين شهواتك (الدوبامين)، وهذه المعركة لا ينحصر ميدانها في الطعام والشراب، بل يتعدّاها لكلّ جوانب حياتك اليومية، والتي يأتي على رأسها اليوم تعاملك مع الإنترنت.

خاتمة:

لو أردتُ أن ألخّص لك هذا المقال بعد كلّ التطواف السابق لقلت لك:

- إنَّ رمضان فرصة عظيمة استثنائية لمن يريد أن يغيّر من نفسه، الله جل وعلا هو من اختار هذا الشهر، وهو من اختار نظام الأكل والشرب فيه، وهو من أمر بصومه، ووعد الصائمين بأنّهم لو أحسنوا صيامهم فسوف يخرجون من رمضان وهم أكثر تقوى.
- إنّ الدوبامين هو كلمة السرّ في سلوك الإنسان، وكلّما كان الدوبامين أعلى أعانك ذلك على بناء عادات إيجابية وعلى أن تستمتع في حياتك أكثر، إلا أنّنا اليوم نشهد حالة وبائية من انخفاض الدوبامين عند عموم الناس بسبب إفراطهم في استعمال الانترنت.
- إنّ كميات الدوبامين الكبيرة التي تفرز على عاداتنا السيئة هي التي تجعلنا أسرى لهذه العادات، وكأنّنا نُساق إليها بسلوك قهري، وليس لنا هنا إلّا أن ندخل في معركة مع الدوبامين عن طريق قوّة إرادتنا.
- قوّة الإرادة عضلةٌ يمكن أن نقوّيها من خلال عدّة تمارين يأتي على رأسها حرمان النفس مما تشتهيه، ومن ذلك الصيام.
- تتحقّق فائدة الصيام الأكبر من خلال أن تتغلّب على رغبات نفسك وتنهاها عن عاداتها السيئة وإدماناتها، لتخرج من رمضان بإرادة أقوى على الابتعاد عمّا يغضب الله تعالى.

(١) أخرجه البخاري (١٨٩٤) ومسلم (١١٥١) واللفظ له.

قضايا معاصرة

التكامل المعرفي وأثره على النهضة العلمية والحضارية

أ. يوسف العزوزي (*)

المعرفة من خصائص البشر التي تُميِّزُهم عن غيرهم من الكائنات، ويَتفاوت الناس في مستوى المعرفة الذي يمتلكونه، كما تتفاوت الأمم في كيفية تعاطيها معه اهتمامًا وإهمالاً، بما ينعكس على تقدُّمها وتحضُّرها، فمنها ما يَترك الناس وما يختارونه من اختصاصات واتجاهات معرفية، ومنها ما يُدير الحركة المعرفية ضمن خطط ورؤى تحرص على تعميق التخصص وإحداث التوازن والتكامل المعرفي المنشود.

التكامل المعرفي بين العلوم له عمقٌ تاريخي وأصالةٌ زمنية، فهو قديم قِدَم تلك المعارف والعلوم نفسها، فالعلم لا ينشأ بمعزل عن غيره، بل تتضافر العلوم وتتكاتف ويكمِّل بعضها بعضًا، حتى تشكِّل بمجموعها نسيجًا ثقافيًا وحضاريًا لشعب من الشعوب، أو للبشرية جمعاء.

وكل العلوم مطلوبة إما ابتداء أو تبعًا، وإلى هذا المعنى يشير عالم أهل الأندلس ابن رشد الحفيد حيث قال: «إنَّ العلوم صنفان: علوم مقصودة لذاتها وعلوم ممهدة للإنسان في تعلم العلوم المقصودة لنفسها»[1]. فعلوم الوحي تحتاج العلوم الإنسانية في التأصيل والاجتهاد، والعلوم الإنسانية تتطلب مستويات مادية وأخرى روحية.

المقصود بالتكامل المعرفي:

يمكن تعريف التكامل المعرفي بأنه الصورة العلمية المتكاملة للوجود والذات، المتحققة بتفعيل الرؤية الإسلامية في كل مجالات المعرفة، سواء أكانت علومًا طبيعية أم اجتماعية أم إنسانية أم شرعية[2].

وهذا التعريف يؤكِّد على أنَّ العلوم مكمِّلةٌ لبعضها، وأنها لا تكتمل إلا برؤية عقدية صحيحة في مختلف مجالاتها.

واقعنا العلمي والمعرفي:

إذا نظرنا في سِيَر السابقين من علمائنا وجدناهم جسَّدوا هذا المعطى وحقَّقوا ذلك التكامل: فقد كانوا علماءَ متبحِّرين في جُلِّ العلوم ينهلون من

(*) باحث في الدراسات الفقهية والقضايا الشرعية - المغرب.

(١) الضروري في صناعة النحو، لابن رشد الحفيد، ص (٩٩).

(٢) مقال: التكامل المعرفي ودوره في قيام الحضارة الإسلامية وبناء الأمة المحمدية، لياسين مغراوي، مدونة «تعليم جديد».

كل بساتين المعارف وحدائق الفنون، ومشاركاتُهم وتآليفُهم شاهدةٌ على ذلك ومنبئةٌ بما هنالك.

فالغزالي كان فقيهًا أصوليًا فيلسوفًا لغويًا مربيًا، وابن رشد كان طبيبًا فقيهًا فيلسوفًا لغويًا وقاضيا، والعزُّ بن عبد السلام كان عالمًا بالفقه والمقاصد واللغة والأصول وفصول السياسة والحكم، وابن خلدون أسس علم الاجتماع وكان فقيهًا قاضيًا لغويًا، وابن حزم والسيوطي وابن تيمية وغيرهم من الأعلام شاركوا بالكتابة والتأليف في جُلِّ مجالات المعرفة، وشتى أنواع الثقافة والفنون، وما ذلك إلا لأنهم نظروا إلى العلوم الإنسانية على أنها ضرورة بها تتم العلوم الدينية.

لكن في وقتنا الحاضر تغيَّر وضع التحصيل المعرفي بجملةٍ من المؤثِّرات الداخلية والخارجية، سواء: التاريخية أو السياسية أو الحداثية المادية.

فتولَّدت فجوة القطيعة والتجزئة بين الحقول المعرفية، وغابت تلك الوحدة، فأضحى المتعلِّم لا يكاد يُفارق تخصُّصَه إلا لمامًا، مضطلعًا بما احتواه تخصصه جاهلاً بما سواه، مطفئًا أنوار بصيرته عند حدود تخصصه، وتلك هي المعرفة التي لا تقوم بها قائمة ولا ترتجى من ورائها نهضة.

هذا النموذج من المعرفة يمكن القول إنه يمثل «إنسان النصف» الذي يعتبر من أسباب تعطيل النهضة الفكرية والحضارية على حد تعبير المفكر مالك بن نبي[1].

> **كان علماؤنا السابقون متبحِّرين في جُلِّ العلوم ينهلون من كلِّ بساتين المعارف وحدائق الفنون، وتآليفُهم شاهدةٌ على ذلك، وفي قتنا الحاضر تغيَّر وضع التحصيل المعرفي فتولَّدت فجوة القطيعة والتجزئة بين الحقول المعرفية، وغابت تلك الوحدة، فأضحى المتعلِّم لا يكاد يُفارق تخصُّصَه إلا لمامًا**

أثر الوضع الحالي للتعليم الجامعي في إضعاف التكامل المعرفي:

كان للجامعات في الدول الإسلامية دورٌ كبيرٌ في النهضة العلمية والتقدُّم المعرفي، لكنها في الوقت نفسه أسهمت في إضعاف التكامل المعرفي، وذلك من خلال:

١. ترسيخ التخصُّص على حساب التوسّع، مما يجعل الطالب يمضي سنواتٍ من عمره متوجِّهًا لتخصُّص معيَّن بمعزلٍ عن بقية العلوم، فيصبح جاهلاً بها معزولاً عنها، ومع أنَّه يتعمَّقُ في تخصصه أكثر ويبرز فيه، إلا أنَّ ضعفه وجهلَه بالعلوم الأخرى قد يعود عليه سلبًا ويؤثِّر على مدى استيعابه لتخصُّصه وفهمه له.

٢. الشرخ الكبير في الهوية، لأنَّ الطالب يواجه في معظم التخصصات الجامعية نظرياتٍ مستوردةً وأفكارًا دخيلةً ووافدةً تُهدِّد هويَّته الحضارية وشخصيته الفطرية في شتى فروع العلم والمعرفة الدنيوية، أما طالب العلوم الشرعية فهو بين اكتساب قناعاتٍ شخصيةٍ ومذاهبَ فكريةٍ شرقية، وبين تراكم معارف وعلوم منفصلة عن أخواتها من غير منهج تفكيري أو نقدي، كتحصيل الفقه من غير حديث، أو حديث من غير أصول، أو أصول فقه من غير علوم اللغة العربية، أو عقائد من غير سلوك وتصوف صحيح، فصار الهدف من إنشاء الجامعات وتأسيسها غائبًا في ظل غياب النسق العلمي والتكامل المعرفي بين أطياف العلوم وأنواع الفنون[2].

بين التخصص والتقوقع:

النقد الموجَّه لتراجع الحالة التكاملية في المعرفة لا يمنع من التخصص الدقيق في بعض العلوم والفنون، تخصصًا يتيح لصاحبه الإنتاج والابداع في محرابها، وهذا من التخصُّص المحمود، وقد اشتهر عدد من علماء المسلمين بتخصُّصهم في علوم بعينها وبروزهم فيها دون غيرها، حتى ارتبط اسمهم بها وأضحت علَمًا عليهم دون غيرها من العلوم الأخرى، ومن أولئك العلامة الشاطبي رحمة الله عليه في المقاصد الشرعية، وابن الصلاح في علم المصطلح، والإمام مسلم في الحديث ....، وهذا أمرٌ لا بأس به ما دام أنه لم يأت على حساب علوم أخرى، وإلا فقد صنَّف النبيُّ ﷺ الصحابة بحسب تخصُّصاتهم ومجالات اشتغالهم. فقال عليه السلام في معرض حديثه عن الصحابة وما

(١) شروط النهضة، لمالك بن نبي، ص (٧٦).

(٢) مقال: التكامل المعرفي ودوره في قيام الحضارة الإسلامية وبناء الأمة المحمدية، لياسين مغراوي، مدونة «تعليم جديد».

امتاز به كل واحد عن غيره: (...وأعلَمُهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل، وأفرضهم زيد بن ثابت، وأقرؤهم أبي بن كعب...) الحديث[1].

فهذا التصنيف من النبي ﷺ وإن دلَّ على وجود تخصصات معينة لدى الصحابة إلا أنَّ له دلالتين زيادةً على ذلك:

أولاهما: أنَّ علم معاذ بالحلال والحرام وزيد بن ثابت بالفرائض -المواريث- وأُبي بالقراءة يدلُّ على أنهم فاقوا غيرهم في تلك العلوم والمعارف وأحاطوا بأحكامها، فاشتهروا بذلك دون غيرهم فأصبحوا مرجعًا في تلك المجالات والمعارف.

ثانيهما: اختصاصهم بذلك لا يعني جهلَهم بغير ما هنالك. فمعاذ كان ولا شك عالمًا بالفرائض عالمًا بالقراءة، وزيدٌ كان عالمًا بالحلال والحرام عالمًا بالقراءة وهكذا دواليك، غير أنهم تخصَّصوا في تلك المعارف واتخذوها نقطة انطلاق إلى ما دونها من المعارف لا أنهم اعتبروها نقطة الانتهاء والتقوقع والانزواء، وهذا هو عين التخصص المحمود الذي يفتح لصاحبه سبلاً أُخَر لطرْق شتى أبواب العلوم والمعارف والنهل من كل الموارد والمشارب.

النقد الموجَّه لتراجع الحالة التكاملية في المعرفة لا يمنع من التخصص الدقيق في بعض العلوم والفنون، تخصصًا يتيح لصاحبه الإنتاج والابداع في محرابها، وهذا من التخصُّص المحمود المطلوب، ما دام أنه لم يأت على حساب علومٍ أخرى

التكامل المنشود:

حقيقة التكامل المرجو تحصيله هو الذي لا يعترف بالحدود الوهمية للمعارف، ولا يقف عند تصنيفها تصنيفًا حادًا يمنع من الزيادة في الطلب والتحصيل بين علوم كونية وأخرى عقلية أو علوم دينية وإنسانية، بل الهدف هو تحقيق وحدةٍ معرفيةٍ تكاملية تقوم على انصهار الفوارق بين الحقول المعرفية، واعتبار العلوم جميعها كتلة واحدة مطلوبة إما ابتداء أو تبعًا.

غير أن ذلك قد لا يتأتّى بحيث لا يمكن الإحاطة بمجالات المعرفة جلها فأحرى بكلِّها، فيعسُرُ بلوغ التكامل المعرفي المراد، وهذا أمر واردٌ لا محالة. فيجد المرء نفسه بين أمرين: الإلمام بالتخصص والتقوقع حوله، أو الأخذ بنتفٍ معرفية من كل الحقول لا تؤهله للإلمام بأحدها ولا تجعل منه عالمًا بل لا تكاد تبلغ به رتبة المثقف، وهما أمران أحلاهما مرّ.

غير أن هذا لا يمنع من العمل وفق مؤسسات ولجان ومجامع لتحقيق ذلك التكامل المنشود سواء على مستوى الجامعات أو المؤسسات التعليمية بل حتى على مستوى الدولة والأمة جمعاء.

فيُنتقَى لكل تخصُّص من هو أهلٌ له ويُجتهد في النازلة من كلٍّ بحسب موقعه ومجاله، فتُجمع الأقوال وتُوحَّد الآراء وتستنبط الأحكام بمعية كل ذلك دون إقصاء لحقل من الحقول.

وقريبٌ من هذا المعنى قول الدكتور محمد بنعمر: «فالواقع المعاصر اليوم يعرف تطورًا كبيرًا في العلوم بقسميها الإنساني والطبيعي، والفقيه في أمسِّ الحاجة إلى معرفة هذه العلوم في بناء فتاويه واجتهاده، وإذا استعصت عليه هذه المعرفة كان من الواجب عليه الاستعانة بالعلماء المتمكِّنين بمجال تخصُّصهم»[2].

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي في بيان أنَّه لا حرج في الاشتغال بالتخصصات الدقيقة، وأنَّ ذلك من أسباب تسهيل إصدار الفتاوى والأحكام على النوازل ما دام أن ذلك سينتظم عبر عمل جماعي: «... وإذا قلنا بتجزُّؤ الاجتهاد كما هو رأي الأكثرين فالأمر أسهل وأسهل. فهناك من العلماء من عكفوا على فقه الأسرة أو الأحوال الشخصية وتفرَّغوا له وأتقنوه، ونفذوا إلى أعماق مسائله... وآخرون تفرغوا لفقه المعاملات المالية أو الجانب الاقتصادي في التشريع الإسلامي... وغيرهم اهتمَّ بالفقه الجنائي أو الإداري أو الدستوري فهم مجتهدون فيما تخصصوا فيه»[3].

ثمرات التكامل المعرفية:

إنَّ التكامل المعرفي كفيلٌ بصناعة النموذج المعرفي العلمي والنموذج الحضاري، لأنَّ التطوُّر الإنساني يقتضي توسيع البحث وإشراك كافة العلوم

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٩٠).
(٢) من الاجتهاد في النص إلى الاجتهاد في الواقع، لمحمد بنعمر، ص (١٣٣).
(٣) الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، للدكتور يوسف القرضاوي، ص (١١٢).

المسعفة والمساعدة. فالخطأ أن يجتهد الفقيه بعيدًا عن المعرفة بالمجتمع ونفسية السائل. فهو ضرورة لتحقيق المنجزات العلمية والحضارية.

وإنَّ التاريخ الإسلامي خاصّةً يُبرز أن العلماء العرب قديمًا قد حرصوا على تحقيق التكامل بين العلوم الإسلامية والعلوم الإنسانية، بدايةً من مطلع العصر العباسي الذي سعى فيه الخليفة المأمون لإنشاء بيت الحِكمة والعمل على ترجمة التراث اليوناني والعلوم العقلية وإعادة التجانس بين العلوم الكونية والعقلية، فتمكَّنوا بذلك من بناء أعظم الحضارات الإنسانية، التي أرغمت الأعداء على الاعتراف بها قبل الأخلاء.

تقول الدكتورة عقيلة حسين في بيان الأسس التي عليها تقوم الحضارة وبها تبنى: «أساس بناء الحضارة الإسلامية: الدين والعلم، والدين الإسلامي حثَّ على العلم في أول الآيات نزولاً على سيد الخلق ﷺ، والعلم هو أساس التكليف والاجتهاد وصحة الأعمال والأقوال»[1].

فكلُّ واقعةٍ خلّفت فجوة بين العلوم الدينية والعلوم الكونية أو بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية -مشكلة الثقافتين- تُعتبر بمثابة ناقوس خطرٍ وطريق فشلٍ للنهضة العلمية وسببًا للحيلولة دونَ قيام الحضارة.

إذ الحضارة تستلزم خدمة المعارف بعضها لبعض، وانصهارها في قالبٍ واحدٍ يروم خدمة الإنسان وبناء العمران، وهو ما يجعل الخروج من نفق التخصصات العلمية إلى رحابة التكامل المعرفي أمرًا ضروريًا للنهضة العلمية والحضارية.

> **التكامل المرجو هو الذي لا يعترف بالحدود الوهمية للمعارف، ولا يقف عند تصنيفها تصنيفًا حادًا يمنع من الزيادة في الطلب والتحصيل بين علوم كونية أو دينية أو إنسانية، بل الهدف هو تحقيق وحدة معرفيةٍ تكاملية تقوم على انصهار الفوارق بين الحقول المعرفية، واعتبار العلوم كتلة واحدة مطلوبة إما ابتداء أو تبعًا**

من صور غياب التكامل في واقعنا:

لغياب التكامل المعرفي في واقعنا المُعاش صور متعدِّدة، تطالعنا في أروقة الجامعات والمؤسسات العلمية، وعلى وسائل الإعلام وشبكات التواصل الاجتماعي، ومن أهمها:

- صدور فتاوى من بعض المفتين تفتقد لمراعاة الحقائق العلمية التي استقرَّت في هذا العصر، وأكدها العلم الحديث، وبقاء هذه الفتاوى مبنية على تصورات طبية وعلمية منقوصة بنيت قبل التقدم العصري الحديث.
- اقتحام بعض متخصصي العلوم الطبيعية مجال الفتيا في المسائل الشرعية، والكلام في تفسير كتاب الله، وادِّعاء أن العلوم الشرعية يفهمها كلُّ أحد ولا حاجة للتخصص فيها، وقد يصل ببعض هؤلاء إلى الطعن في السنة ورواتها لجهلهم بعلوم الرواية والرجال.
- تجرؤ بعض المتخصصين في بعض المجالات بعينها على الخوض والحديث في كل المجالات، وظنِّهم أنَّهم بتخصُّصهم قد حازوا العلم كُلَّه، فإذا بهم يأتون بالعجائب والطوامّ، وذلك بسبب بُعدهم عن التكامل المعرفي الذي يعطيهم فكرة مبدئية عن بقية العلوم وإن لم يتخصصوا فيها.
- بروز ظاهرة المتخصصين في مجالات دقيقة جدًا ضمن فنٍّ بعينه داخل علم من العلوم، ونيلهم للشهادات والمراتب العالية في هذه المجالات، وهم في ذات الوقت لا يكادون يعرفون شيئًا خارج هذا التخصص الذي لا يكاد يحتاجه أحد.
- انتشار ظاهرة إسقاط المرجعيات وتراجع مكانة الرموز والمختصين بين الشباب.
- الضحالة الثقافية واللغوية لدى قطاعات كبيرة من المثقفين والمتخصصين التي تظهر بوضوح في أحاديثهم وكتاباتهم.

مخاطر غياب التكامل:

الضعف الحاصل في شتى المجالات، والذي يبدو جليًا في المجال التربوي التعليمي وهشاشة المنظومة التعليمية في عددٍ من الدول خاصة، إنما أحد أسبابه غياب التكامل المعرفي بين العلوم،

(١) مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية/ عدد (٤) سنة ٢٠١٢م موضوع: التكامل المعرفي في المنظومة التعليمية الجامعية د.عقيلة حسين.

من صور غياب التكامل في واقعنا

- صدور فتاوى لا تراعي الحقائق العلمية التي أكدها العلم الحديث
- اقتحام بعض متخصصي العلوم الطبيعية مجال الفتيا في المسائل الشرعية
- تجرؤ بعض المتخصصين في مجالات معينة على الخوض والحديث في كل المجالات
- ظاهرة المتخصصين في مجالات دقيقة جدًا ولا يكادون يعرفون شيئًا خارج تخصصهم
- انتشار ظاهرة إسقاط المرجعيات وتراجع مكانة الرموز والمختصين بين الشباب
- الضحالة الثقافية واللغوية لدى قطاعات كبيرة من المثقفين والمختصين

وغياب ثمرات العلم والتعلم في بناء وعي سليم في المجتمع، إضافة إلى الهُوّة والخرق الكبير الموجود بين الهوية والتكوين عند الطلاب الجامعيين، فهم في مواجهة أفكار دخيلة في علم النفس، وعلوم التربية، والقانون والسياسة، واللسانيات والطب دون أدنى معرفة بالتاريخ الإسلامي لتلك العلوم جميعها. إلى جانب ما أشرنا إليه من التيه الذي يقع فيه طالب العلوم الشرعية بين تأسيس اتجاهه الشخصي وبين المذاهب الفكرية، وبين تحصيل المعارف والعلوم منفصلةً عن غيرها من غير منهج تفكيري أو نقدي، مثل تحصيل علم الحديث بلا علم الأصول والمقاصد، أو أصول الفقه بدون علوم اللغة، والعقائد بلا مناهج، أو بتصنيف العلوم العقلية علوم إضلال وزندقة، فأدى ذلك كله إلى انقطاع الصلة بين أطياف العلوم وأنواع الفنون، وهذا كله خلاف الأصل، إذ الأصل في تلك العلوم التفاعل مع النظام المجتمعي وقوانينه، واحتضان كيانه وهويته، والمحافظة على ثوابته، وضمان وجوده واستمراره.

> **إنَّ أساس بناء الحضارة الإسلامية كان قائمًا على الدين والعلم، فالدين ضابطٌ للعمل البشري مهذِّبٌ لسلوكهم وتصرفاتهم، والعلم محركٌ للعقل، فالتكامل بينهما أدى إلى ظهور علوم دينية وطبيعية كثيرة ومتنوعة، والتي أثرت في بناء الحضارة الإسلامية قديمًا بناء قويمًا ومتينًا**

إن آفة غياب وحدة معرفية وتكامل علمي مؤذن بخراب البلاد وهلاك العباد جراء ما يحصل من سوء في التقدير وسلامة في التنظير.

وقد أدرك الفقهاء خطورة ذلك قديمًا فاشترطوا فيمن يُنصب للفتوى والاجتهاد شروطًا تضمن لصاحبها صفة التكامل أو تكاد، وذلك من قبيل تحقيق العلم بالنصوص الشرعية ومواطن الإجماع واللغة ودلالاتها، والواقع ومتغيراته. ولذلك فقد كان النبي ﷺ يمثل في سنته تجسيدًا للربط بين المنهج القرآني والواقع[1].

(١) تكامل المنهج المعرفي عند ابن تيمية، لإبراهيم عقيلي، ص (٤٤).

لهذا وغيره فإنَّ النبي ﷺ قد ذمَّ على بعض أصحابه جُمودهم على النص والتصدُّر للفتوى دون مراعاة فهم الواقع ومآلات الفتوى والاجتهاد، وهي كلُّها وحدات يكمِّل بعضها بعضًا، فتنأى بصاحبها عن الخطأ الصريح، وتدنو به من الصواب الصحيح.

ففي حديث جابر رضي الله عنه أنَّه قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجرٌ فشجه في رأسه، ثم احتَلَمَ، فسأل أصحابه هل تجدون لي رخصةً في التيمم؟ فقالوا ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على النبي ﷺ أُخبر بذلك فقال: (قتلوه قتلهم الله...)[1] الحديث.

فهلاك هذا الصحابي إنما كان نتيجة غياب تكامُلٍ معرفيٍّ وعدم توفيق في تنزيل الفتوى، وذهولٍ عن مآلاتها ونتائجها، ما جعل النبيَّ ﷺ يُغلظ القول: قتلهم الله.

كما أنَّ غياب وحدة المعرفة والتقوقع داخل التخصصات والتعصُّب لتلك التحزُّبات والجماعات نذيرٌ بصراعاتٍ تَحول دون التقدُّم العلمي والحضاري.

> **وحدة المعرفة والتكامل بين الحقول المعرفية سببٌ لتحقيق الأمن الفكري، ويتيح مجالاً واسعًا لمعالجة جُلّ مشكلات العصر، ويسهم في بناء الإنسان والأوطان، وتحقيق التقدم والازدهار، والتخصص العلمي يصبح سلبيًا إذا ما انزوى المتعلم داخل تخصصه وانكفأ عليه**

فتجد على سبيل المثل مدارس تتمسَّك بالرأي وأخرى بالأثر ولم تربطْ جسور الوصال بين تلك التخصُّصات والمناهج وتدفعْ عنها القطيعة، وتجد ثُلَّةً تُقرِّب المنطق وتعتمده، وأخرى تُحرمه وتمنعه، من غير سعي إلى تقريب المناهج ومحاولة للتصالح بين الفكرين، وكلٌّ يدعي الحقَّ وينفرد بالحقيقة.

كلٌّ يدعي وصْلاً بلَيلى
ولَيلى لا تُقر لهم بذاكَ

ولقد عرفت القرون الأولى صُورًا من هذا الصراع الناشئ عن الخلل في التكامل المعرفي الذي يجمع كل الأطياف والفرقاء ويوحد الصفوف، ومن أمثلته الخلاف المشهور بين أهل الأثر وأهل الرأي.

وهذا سببٌ كافٍ للدعوة إلى التوفيق بين المناهج والمدارس والرؤى، واعتماد التكامل المعرفي منهج دراسةٍ وتأليف، فهو السبب الأنسب لتوحيد الصفوف وتأكيد الاتِّفاق ودفع الافتراق والشقاق، وصنيعُ الإمام الشافعي رحمة الله عليه عن طريق علم أصول الفقه خير شاهد ودليل على ذلك.

وكلام الدكتور عبد الحليم مهور باشة قريب من هذا حيث يذكر أنَّ تصنيف العلوم إلى علوم نقلية وعلوم عقلية أدَّى إلى «توالد ثنائية في المجال التداولي الإسلامي، تلك الثنائية التي وضعت العقل في مقابل الوحي، فتولَّدت عنها أزمة إبستيمية (أي علمية) حادّة عصفت بعلوم الوحي بمختلف تخصُّصاتها، نتيجة عدم قدرتها على الاستفادة من المنجزات المعرفية التي ولَّدها العقل الإنساني، فبقيت حبيسة الممارسات المنهجية التقليدية»[2].

خاتمة:

إنَّ أساس بناء الحضارة الإسلامية خاصة كان قائمًا على الدين والعلم، فالدين باعتباره ضابطًا للعمل البشري مهذبًا لسلوكاتهم وتصرفاتهم، والعلم باعتباره محركًا للعقل، فالتكامل بين الدين بوصفه نصًا والعقل بوصفه مستنبطًا للعلم من النص أدى إلى ظهور علوم دينية وغير دينية كثيرة ومتنوعة، والتي أثرت في بناء الحضارة الإسلامية قديمًا بناء قويمًا ومتينًا، حتى صارت أمة خيرة.

فوحدة المعرفة والتكامل بين الحقول المعرفية بالإضافة إلى كونه سببًا لتحقيق الأمن الفكري، فإنه يتيح مجالاً أوسع لمعالجة جُلّ مشكلات العصر كلٌّ بحسب تخصصه وقدراته، ويسهم في بناء الإنسان والأوطان، وتحقيق التقدم والازدهار، وإن التخصص العلمي يصبح سلبيًا إذا ما انزوى المتعلم داخل تخصصه.

لهذا وذاك كان لزامًا علينا إعادة النظر والاعتبار في قضية وحدة المعرفة داخل الجامعات والمعاهد، قصد الارتقاء بالعملية التعليمية التعلمية لكونها الرهان الأهم للتنمية الفردية والمجتمعية، وهي الطريق الأكثر نجاعة في تحديد حاضر الأمة ومستقبلها.

(١) أخرجه أبو داوود (٣٣٦).
(٢) دورية نماء لعلوم الوحي والدراسات الإنسانية، العدد ١، سنة ٢٠١٦م، ص (٢٠٦) بتصرف.

تأصيل

ركائز وقواعد الطب الوقائي في الإسلام

د. مأمون القادري (*)

أجسادنا أمانة بين أيدينا، جعلها الله وعاءً لأرواحنا، نستعين بصحتها على طاعته وعبادته، ونستثمرها في عمارة الأرض وطلب الرزق، وهذه الأمانة تتطلب منا الحفاظ على صحتها وتقويتها والعناية بها، وهذه جملة من القواعد والتعليمات الإسلامية التي تصب في ذلك، وكما قالوا قديمًا: درهم وقاية خير من قنطار علاج.

جاء الإسلام نظامًا متكاملاً يحقِّق مصالح الإنسان في الدنيا والآخرة، فلم يترك الله خيرًا لعباده إلا أمرهم به، ولا ضررًا بهم إلا نهاهم عنه، ومن ذلك وصية النبي ﷺ: (إن لجسدك عليك حقًا)[1].

وندرك أهمية هذه الوصية عندما نعلم أن العقل السليم في الجسم السليم، وأنَّ البدن المُعافى أقدر على القيام بمهام الدين، فكان حفظ النفس البشرية جسديًا ونفسيًا من أهم مقاصد الشريعة، وجاءت به الكثير من نصوص القرآن والسنة.

الطبُّ ليس علاجًا فحسب:

عند ذكر الطب ينصرف الذهن في الغالب إلى العلاج بعد وقوع المرض، لكن للطب فرعًا يُعنى بالوقاية من الأمراض قبل حصولها.

«إنَّ قواعد طب الأبدان ثلاثة: حفظ الصحة، والحمية عن المؤذي، واستفراغ المواد الفاسدة. وقد ذكر الله سبحانه هذه الأصول الثلاثة في هذه المواضع الثلاثة (الصوم والحج والوضوء)، فقال في آية الصوم ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤] فأباح الفطر للمريض لعذر المرض، وللمسافر لحفظ صحته وقوته لئلا يذهبها الصوم في السفر...

وقال في آية الحج: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦] فأباح للمريض الذي به أذى من رأسه من قمل أو حكة أو غيرهما أن يحلق رأسه في الإحرام استفراغًا لمادة الأبخرة الرديئة التي أوجبت

(*) طبيب، وحاصل على دبلوم دراسات عليا في الحديث والتفسير.

(١) أخرجه البخاري (١٩٧٥)، ومسلم (١١٥٩).

له الأذى في رأسه باحتقانها تحت الشعر، فإذا حلق رأسه تفتحت المسام فخرجت تلك الأبخرة منها...

وأما الحمية فقال تعالى في آية الوضوء: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [النساء: ٤٣] فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب حمية له أن يصيب جسده ما يؤذيه، وهذا تنبيه على الحمية من كل مؤذ من داخل أو خارج. فقد أرشد سبحانه عباده إلى أصول الطب ومجامع قواعده»[١].

عند ذكر الطب ينصرف الذهن في الغالب إلى العلاج بعد وقوع المرض، لكن للطب فرعًا يعنى بالوقاية من الأمراض قبل حصولها؛ لذا كان حفظ النفس البشرية جسديًا ونفسيًا من أهم مقاصد الشريعة، وجاءت به الكثير من نصوص القرآن والسنة

ركائز الطب الوقائي في الإسلام:

ورد في نصوص الكتاب والسنة ركائز وقواعد لما بات يُعرف بالطب الوقائي الذي هو فرع مهم من الطب النبوي، ويمكن إجمالها في التالي[٢]:

الركيزة الأولى - حفظ الصحة:

دعا الإسلام إلى الاهتمام بالقوة البدنية والنفسية وأثنى القرآن على أصحابها، فقال تعالى على لسان ابنة الرجل الصالح في مدين تصف موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأثنى على طالوت فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، كما أثنى النبي ﷺ على المؤمن القوي فقال: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير)[٣]، وما هذا الثناء إلا لاعتناء أصحاب هذه القوة باستخدامها في وجوه الخير وإعانة المظلومين.

ومن أهم قواعد ومبادئ حفظ الصحة العامة:

١. تناول قدر الحاجة من الطعام الطيب المفيد لتأمين ما يلزم البدن من الموارد لتعزيز بُنيته العظمية والعضلية والعصبية وأنسجته الحيوية قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨]، وقال أيضًا: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، وأكد على تناول الطيبات لصحة الجسد وسلامته، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ونهى عن تناول الخبيث الضارّ فقال: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

٢. التشجيع على إعداد القوة وما يتطلَّبه من اللياقة البدنية، فقد حثَّ الإسلام على الجهاد وإعداد لوازمه فقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وحثَّ على الزيادة على العبادات المفروضة من صلاة وصوم بأداء النوافل، وما فيها من فوائد طبية وجسمية لا تخفى، فقد أشارت الأبحاث الطبية إلى أهمية الصيام في حفظ الصحة ووقايتها من الأمراض.

كما حثَّ على الحركة والعمل في البكور (اللهم بارك لأمتي في بكورها)[٤] مع ما في البكور من فوائد جسمية ونفسية كثيرة، وشجَّع على المبارزة والمصارعة وركوب الخيل والسباحة والرمي والسباق بأنواعه، ففي الحديث: (صارع رسول الله ﷺ ركانة وصرعه)[٥] وفي حديث آخر: (ألا إنَّ القوة الرمي)[٦]، وقال أيضًا: (لا سبَق إلا في خُفٍّ أو حافر أو نصل)[٧]، وفي ذلك فوائدُ صحية ونفسية كثيرة.

كما كره الإسلام الكسل، والسمنة الناشئة عن كثرة الأكل أو قلّة الحركة، وأوصى ﷺ بالقيلولة -وهي النوم ظهرًا قبل الزوال أو بعده- لما فيها

(١) زاد المعاد، ص (٥٨٩-٥٩٠).

(٢) لا شك أن المقصد الشرعي الأول مما سيأتي من مسائل وأحكام هو التعبد لله تعالى، وإنما أنزلت الشرائع وبعثت الأنبياء لذلك، وأن الامتثال لهذه التشريعات مطلوب شرعًا سواء أدركت الحكمة من تشريعه أم لا، وسواء ظهرت فوائده الدنيوية أم لا، وأن ما يحصل من مصالح وفوائد دنيوية فهو تبع لذلك ومحصلة لاحقة، دون التزهيد أو التقليل منها.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٦٠٦) والترمذي (١٢١٢).

(٥) أخرجه أبو داود (٤٠٧٨) والترمذي (١٧٨٤).

(٦) أخرجه مسلم (١٩١٧).

(٧) أخرجه أبو داود (٢٥٧٤) والترمذي (١٧٠٠).

من إعادة النشاط والقوة للجسم لباقي اليوم فقال ﷺ: (قيلوا فإن الشيطان لا يقيل)[١].

٣. منع المشقَّة المؤدِّية لضعف الجسم وتلفه، فشُرعت الرُّخَص تخفيفًا عن المسلم ودفعًا لهذه المشقَّة، كرخصة إباحة الفطر للمريض والمسافر، فقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤]، بل أوجب الشرع الفطر على الحائض والنفساء لضعف جسديهما. ومن الرخص إباحةُ الصلاة قاعدًا للعاجز عن القيام.

٤. اهتمَّ الإسلام بالصحّة النفسية والعقلية، فشرع تشريعاتٍ عديدةً لسلامتها ومنع اضطرابها؛ فدعا إلى الإيمان بالله وحده وعدم الشرك به حماية للعقل من الخرافات والأوهام، وأمر بالإيمان بالقضاء والقدر، والصبر على الأقدار، واعتنى ببناء النفس البشرية بناءً قويًا لا تهزُّه المصائب والابتلاءات فأرشد القرآن إلى كثرة ذكر الله وتلاوة القرآن ليكون حصنًا للنفس يعطيها القوّة والثبات، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، فيَذهبُ القلق والاكتئاب وتحُلُّ السكينة والطمأنينة، وقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨]، وأرشد تعالى إلى التسبيح والصلاة تحصينًا للنفس من ضيق الصدر. فكان من دعاء النبي ﷺ لربه: (أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي)[٢].

> **حرص الإسلام على صحة الإنسان النفسية والعقلية، فشرع ما يحافظ عليها من الخرافات والأوهام، والسحر والشعوذة، وأرشد إلى كثرة الدعاء والالتجاء إلى الله فإنه خير معين للنفس واطمئنانها، وشجع على امتلاك مهارات القوة البدنية كالسباحة وغيرها**

كما أرشد إلى كثرة الدعاء والالتجاء إلى الله فإنه خير معين للنفس واطمئنانها. ومن المعلوم في الطب علاقة الصحة النفسية بالجسمية، فالعوارض النفسية كالقلق والاكتئاب والوسوسة تتسبَّب في عدد لا بأس به من الأمراض العضوية. ومما لا شكَّ فيه أنَّ مما يدفع عن المسلم شرَّ الأمراض النفسية والعضوية ذات المنشأ النفسي هو التزامه بما سبق.

الركيزة الثانية - التداوي بالحمية من المؤذي:

من أهم مبادئ الحمية من المؤذي في الشريعة:

١. نظام الطهارة: حيث أعطاه الإسلام أولوية عظمى فقال النبي ﷺ: (الطُّهور شطر الإيمان)[٣]، ولو تأملنا نظام الطهارة في الإسلام لوجدنا أنه يشمل على أسس من أهمِّها:

- إزالة الخبث والنجاسات من الثياب والبدن وسائر الأماكن، سواء بالماء أو ما يقوم مقامه من تراب أو ورق أو مناديل.
- غسل أعضاء الوضوء بالماء يوميًا عدَّة مرّات.
- تعميم البدن بالغُسل والتأكيد على غَسل الشعر والجلد في مواضع كثيرة وبشكل متكرر.
- اشتراط الماء الطاهر المطهِّر لإزالة النجاسة ورفع الحدثين الأكبر والأصغر.
- الأمر باجتناب النجاسات والأوساخ سواء كانت من الإنسان نفسه أو من غيره، كالبول والبراز والدم والقيح والصديد والقيء ولعاب الكلب والخنزير.

ولو قارنَّا ذلك كُلَّه مع أنظمة النظافة الحديثة لوجدنا أنَّ نظام الطهارة في التشريع الإسلامي أوسعُ وأشملُ وأيسرُ استعمالاً وأقلُّ كلفة.

ومن الطهارة في الإسلام تشريع المضمضة والاستنشاق والاستنثار في الوضوء والغسل ومسح الأذنين للوصول إلى ما لا يصل إليه التنظيف الخارجيُّ المعتاد، والاهتمام بالسواك، وما أدراك ما السواك؟ (مطهرة للفم مرضاة للرب)[٤]، فصحَّة

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٨).
(٢) أخرجه أحمد (٣٧١٢) وابن حبان (٩٧٢).
(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣).
(٤) أخرجه النسائي (٥) وابن خزيمة (١٣٥) وعلقه البخاري في باب سواك الرطب واليابس للصائم.

ركائز وقواعد الطب الوقائي في الإسلام

حفظ الصحة:

١- الاقتصار على مقدار الحاجة من الطعام
٢- التشجيع على إعداد القوة واللياقة
٣- منع المشقّة المؤدِّية لضعف الجسم وتلفه
٤- الاهتمام بالصحّة النفسية والعقلية

إخراج المواد التي يؤذي بقاؤها:

١- الحجامة لإخراج الدم الفاسد
٢- الزواج لتصريف المني بصورة صحيحة
٣- منع حبس البول والبراز.

التداوي بالحمية من المؤذي:

١- نظام الطهارة بتفاصيله
٢- منع استعمال الماء الملوث أو تلويث المياه
٣- الوقاية من الأمراض المعدية ومنع العدوى
٤- الحمية الغذائية والنهيُ عن الإسراف والمبالغة
٥- الوقاية من الحوادث المنزلية والكوارث البيئية
٦- الأمر بالتزام التسمية والآداب الإسلامية
٧- الحفاظ على الصحة الجنسية

الفم مفتاحٌ لصحة البدن، ونظافة الفم والأنف من أهم أسباب الوقاية من مختلف الأمراض.

ومن توابع الاهتمام بالنظافة العامة: الأمر بنظافة البيوت والأفنية قال ﷺ: (إنَّ الله طيّبٌ يحبُّ الطيب، نظيفٌ يحب النظافة، كريمٌ يحب الكرم، جوادٌ يحب الجود، فنظِّفوا أفنيتكم)[١]، والأمر بنظافة الطرق، قال ﷺ: (وتميط الأذى عن الطريق صدقة)[٢]، وهذا أبو موسى الأشعري لما قدم البصرة قال لأهلها: «إن أمير المؤمنين بعثني إليكم لأعلمكم سنتكم، وإنظافكم طُرقكم»[٣].

ومن نظام الطهارة في الإسلام أمره ﷺ بخصال الفطرة، فقال: (عشرٌ من الفطرة: قصُّ الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء)[٤] وقال الراوي: ونسيتُ العاشرة إلا أن تكون المضمضة.

٢. منع تلويث مصادر المياه بالنجاسات والأقذار، أو استعمال المصادر الملوثة: إذ هي منشأ كثير من الأمراض والأوبئة، قال ﷺ: (لا يبولن أحدكم في الماء الدائم)[٥]، كما نهى الإسلام عن التطهر بالماء النجس أو الشرب منه. كما نهى النبي ﷺ عن البول في المُستحَمِّ خشية وسواس الطهارة فقال: (لا يبولن أحدكم في مُستحَمِّه فإن عامة الوسواس منه)[٦].

٣. الوقاية من الأمراض المعدية ومنع أسباب العدوى: فأمر الإسلام بالقضاء على أهمِّ نواقلها من الحشرات والقوارض وغيرها، قال ﷺ: (خمس فواسق يُقتَلن في الحِلِّ والحرم: الفأرة والعقرب والغراب والحديا والكلب العَقور)[٧].

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٩٩) وقال: غريب. ولكن له شاهد حسن عند الطبراني في الأوسط (٤٠٥٧) بلفظ: (طهروا أفنيتكم فإن اليهود لا تطهر أفنيتها).
(٢) أخرجه البخاري (٢٩٨٩) ومسلم (١٠٠٩).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٢٥٩٢٣).
(٤) أخرجه مسلم (٢٦١). والبراجم هي مفاصل الأصابع وعقدها، وانتقاص الماء التطهر بالماء بعد قضاء الحاجة، والاستحداد حلق العانة، والختان هام جدًا لمنع تجمع القذر والميكروبات تحت القلفة وما يسببه من أمراض.
(٥) أخرجه البخاري (٢٣٩) ومسلم (٢٨١).
(٦) أخرجه أحمد (٢٠٥٦٩) وأبو داود (٢٧) والترمذي (٢١) والنسائي (٣٦) وابن ماجه (٣٠٤).
(٧) أخرجه البخاري (٣٣١٤) ومسلم (١١٩٨) واللفظ له.

أعطى الإسلام نظام الطهارة أولوية عظمى، ولو تأملناه لوجدنا أنه يشتمل على تفاصيل وقواعد كثيرة، وعند مقارنته مع أنظمة النظافة الحديثة سنجد أنَّ نظام الطهارة في التشريع الإسلامي أوسعُ وأشملُ وأيسرُ استعمالاً وأقلُّ كلفة

ومن أعجب الأمثلة: ما شرعه الإسلام في التعامل مع الكلب، قال النبي ﷺ: (طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولاهن بالتراب)[١] فقد كشف العلم الحديث وجود الأمراض في لعاب الكلب وأنها تنتقل إلى الإنسان عبر اللعاب، وأن عضَّة الكلب تنقله فتُسبِّب داء الكَلَب المُميت، كما اكتُشف أنَّ التراب قاتل لهذا الفيروس وقاتلٌ للديدان وبُيوضها الموجودة في لُعاب الكلب.

كما حرص الإسلام على الحماية من الأمراض المعدية فأطلق مبدأ الحجر الصحي، وهذا جليٌّ في قول النبي ﷺ: (لا يورِد مُمرض على مُصح)[٢] وقوله: (فِرَّ من المجذوم كما تفرُّ من الأسد)[٣] وقوله: (إذا سمعتم بالطاعون بأرضٍ فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها فلا تخرجوا منها)[٤] والطبُّ الحديث يؤكِّد أن مبدأ الحجر الصحي هو أقوى وسيلة لمحاصرة الأوبئة والقضاء عليها.

٤. الحمية الغذائية وعلى رأسها النهيُ عن الإسراف في الطعام والشراب، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال ﷺ: (ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنٍ، بحسب ابن آدم أكلات يُقمن صُلبه، فإن كانَ لا محالة فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه وثلثٌ لنفَسه)[٥]، وهذا المبدأ أصلٌ عظيم في الحماية من أمراض الجهاز الهضمي المتنوعة، وتجنُّب الخمول وترهُّل الجسم.

كما حرَّم الإسلام بعض الأطعمة والأشربة المؤذية لبدن الإنسان وصحته النفسية والعقلية فقال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ [المائدة: ٣]. فالميتة سريعة التعفُّن كثيرة السموم، والدم مرتعُ الجراثيم ومخزن السموم، أما ما يُسبِّبه تناول لحم الخنزير من أمراض مختلفة فقد أثبته العلم الحديث، فضلاً عما تورثه هذه المطعومات -وبخاصة لحم الخنزير- من طبائع نفسية خبيثة عند آكلها.

وحرَّم الإسلام شُرب المسكرات والمخدِّرات والمفتِّرات فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] فالخمر فيها إيذاء صارخ للعقل وأعضاء الجسد النبيلة: الدماغ والقلب والكبد والكليتين، فتحريمه حمايةٌ للعقل والنفس. وحرَّم الميسر لأضراره النفسية والاجتماعية والاقتصادية.

حرَّم الإسلام بعض الأطعمة والأشربة المؤذية لبدن الإنسان وصحته النفسية والعقلية؛ فالميتة سريعة التعفُّن، والدم مرتعُ الجراثيم ومخزن السموم، أما ما يُسبِّبه تناول الخنزير من أمراض مختلفة فقد أثبته العلم الحديث، فضلاً عما تورثه هذه المطعومات من طبائع نفسية خبيثة عند آكلها

كما أرشد النبي ﷺ إلى التصبُّح بالتمر وقايةً من السُّمِّ والسحر، فقال: (من تصبَّح كلَّ يوم سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سمٌّ ولا سحر)[٦]، وأرشد إلى الإثمد وقايةً للعين فقال: (خير ما اكتحلتم به الإثمد فإنه يجلو البصر وينبت الشعر)[٧]، وأشار تعالى إلى العسل وما فيه من شفاء فقال: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩] وروي في الحديث: (من لعق العسل ثلاث غدوات كل شهر لم يصبه عظيم من البلاء)[٨].

٥. الوقاية من الحوادث المنزلية والكوارث البيئية: ومن أمثلة ذلك تحذير النبي ﷺ : (لا تتركوا

(١) أخرجه مسلم (٢٧٩).
(٢) أخرجه البخاري (٥٧٧١) ومسلم (٢٢٢١).
(٣) أخرجه البخاري (٥٧٠٧).
(٤) أخرجه البخاري (٥٧٢٨) ومسلم (٢٢١٨).
(٥) أخرجه أحمد (١٧١٨٦) والترمذي (٢٣٨٠) وابن ماجه (٣٣٤٩).
(٦) أخرجه البخاري (٥٤٤٥) ومسلم (٢٠٤٧).
(٧) أخرجه الترمذي (٢٠٤٨) وابن ماجه (٣٤٩٥).
(٨) ضعيف أخرجه ابن ماجه (٣٤٥٠).

النار في بيوتكم حين تنامون)[١]، ومن ذلك قوله ﷺ: (إذا كان جنح الليل أو أمسيتم فكُفُّوا صبيانكم فإنَّ الشياطين تنتشر حينئذ، فإذا ذهب ساعةٌ من الليل فخُلُّوهم، فأغلقوا الأبواب واذكروا اسم الله فإن الشيطان لا يفتح بابًا مغلقًا، وأوكوا قُرَبكم واذكروا اسم الله، وخمِّروا آنيتكم واذكروا اسم الله ولو أن تعرضوا عليها شيئًا، وأطفئوا مصابيحكم)[٢] وكل ذلك حفظًا من دخول الهوامِّ والمؤذيات إلى البيت أو حدوث الحرائق أو نزول الأوبئة على الأطعمة والأشربة.

ومن الوقاية من الحوادث البيئية: نهي النبي ﷺ: (لا يبولنَّ أحدكم في جُحر)[٣]؛ خشية وجود الهوام المؤذية، ونهيه عن نزول المسافر ليلاً للنوم والاستراحة على جوانب الطرق فقال: (إياكم والتعريس على جواد الطريق، والصلاة عليها، فإنها مأوى الحيات والسباع، وقضاء الحاجة عليها فإنها من الملاعن)[٤].

٦. الأمر بالالتزام بالآداب الإسلامية كآداب التسمية عند دخول المنزل منعًا لدخول الشياطين وحماية لأهل البيت منها، قال ﷺ: (إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء)[٥].

وعند الطعام والشراب كفًا ليد الشيطان عن الطعام، قال ﷺ: (إنَّ الشيطان يستحلُّ الطعام أن لا يذكر اسم الله عليه)[٦].

والتسمية عند خلع الملابس ودخول الخلاء، قال ﷺ: (ستر ما بين أعين الجن وعورات بني آدم إذا دخل أحدهم الخلاء أن يقول: بسم الله)[٧].

ومن الآداب عدم أكل الطعام حارًّا خشية الأذى فقد كان أبو هريرة ﷺ يقول: (لا يُؤكل طعامٌ حتى يذهب بخاره)[٨]. وحفظًا للطعام والشراب من التلوث، ففي الحديث أن رسول الله ﷺ: (نهى أن يتنفس في الإناء)[٩] وفي رواية زيادةُ: (أو ينفخ فيه)[١٠] خشية وقوع الرذاذ أو التلوُّث بما يضر.

ومثلها آداب النوم التي تحمي المسلم من آفاتٍ ومشاكلَ صحية، كأن ينام المسلم على وضوء، وعلى شقِّه الأيمن، وأن يتلو الأوراد الخاصة بالنوم، قال النبي ﷺ: (إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك وفوَّضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبةً ورهبةً إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك)[١١]، وذلك ليؤمِّن راحة النفس وراحة الجسد أثناء النوم. ومن ذلك النهي عن النوم على البطن، قال أبو ذرٍّ الغفاري: مرَّ بي النبي ﷺ وأنا مضطجع على بطني فركضني برجله، وقال: (يا جندب إنما هي ضجعة أهل النار)[١٢]، ومنها النهي عن النوم على سطح غير محجور عليه خشية تعريض النفس للأذى والهلاك فقال ﷺ: (من بات على ظهر بيت ليس له حجار فقد برئت منه الذمة)[١٣].

٧. الحفاظ على الصحة الجنسية بالأمر بالزواج لتفريغ الشهوة وقضائها، قال ﷺ: (يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج)[١٤].

وأرشد إلى حماية الفرد والمجتمع من آفات الانحلال الخلقي وما فيها من أمراض جسمية ونفسية خطيرة، فحرم الزنا والشذوذ الجنسي كاللواط، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً

(١) أخرجه البخاري (٦٢٩٣) ومسلم (٢٠١٥).
(٢) أخرجه البخاري (٥٦٢٣) ومسلم (٢٠١٢).
(٣) صحيح أخرجه أحمد (٢٠٧٧٥) وأبو داود (٢٩) والنسائي (٣٤).
(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٢٩) وحسنه ابن حجر.
(٥) أخرجه مسلم (٢٠١٨).
(٦) أخرجه مسلم (٢٠١٧).
(٧) أخرجه الترمذي (٦٠٦).
(٨) أخرجه الطبراني في الكبير (١٧٢) والبيهقي في الكبرى (١٤٦٣١).
(٩) أخرجه البخاري (١٥٣) ومسلم (٢٦٧).
(١٠) صحيح أخرجه أبو داود (٣٧٢٨) والترمذي (١٩٥٠).
(١١) أخرجه البخاري (٢٤٧) ومسلم (٢٧١٠).
(١٢) أخرجه أحمد (١٥٥٤٥) وابن ماجه (٣٧٢٤).
(١٣) أخرجه أبو داود (٥٠٤١) والبخاري في الأدب المفرد (١١٩٢).
(١٤) أخرجه البخاري (١٩٠٥) ومسلم (١٩٠٠).

وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢]، وقال ﷺ: (لم تظهَرِ الفاحشةُ في قومٍ قطُّ حتى يُعلنوا بها إلا فشا فيهم الطّاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مَضَوا قبلَهم)[١].

كما حرَّم الإسلام الجماع أيام الحيض والنفاس مراعاةً للحالة النفسية للمرأة، وقطعًا لسريان الأمراض الجنسية قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة: ٢٢٢] وكل هذا حفاظًا على الفطرة الإنسانية السليمة.

> **يحرص الإسلام على بناء المجتمع الصحي، ويربط أنظمة هذا البناء بدين أبنائه وتعاليمه لتكون ملزمة للمسلم، بل جعل الإسلام الأخذ بالأسباب مع تفويض الأمر لله من الأصول المقررة شرعًا**

الركيزة الثالثة – إخراج المواد التي يضر حبسها:

قال ابن القيم رحمه الله: «والأشياء التي يؤذي انحباسُها ومُدافعتها عشرة: الدم إذا هاج، والمني إذا تبيَّغ، والبول والغائط والريح والقيء والعطاس والنوم والجوع والعطش»[٢].

فمن أهم ما أرشد إليه الإسلام لاستفراغ المواد الفاسدة: الحجامة التي قال فيها رسول الله ﷺ: (ما مررت ليلة أُسري بي بملأ إلا قالوا: يا محمد مُرْ أمَّتك بالحجامة)[٣]، وقال: (إنَّ أمثل ما تداويتم به الحجامة والقسط البحري)[٤]، وروى ابن عباس رضي الله عنهما: (أنَّ رسول الله احتجم وهو محرم من أذى كان برأسه)[٥]. والحجامة هي استخراج الدم الفاسد عند هيجانه ووفرته فيتولَّد دمٌ جديدٌ غزير بالكريَّات البيض المناعية لقتل ما يغزو جسم الإنسان من الخلايا السرطانية وغيرها. وروى ابن عباس رضي الله عنهما: (أنَّ النبي ﷺ احتجم وهو مُحرِمٌ من أكلةٍ أكلها من شاة مسمومة سمَّتها امرأةٌ من أهل خيبر)[٦].

كما شرع الإسلام الزواج لاستفراغ المني وتسكين هيجان الشهوة، فحرّض على إجابة الزوجة لزوجها إذا دعاها ليكون ذلك أدعى لدوام المودَّة بينهما، ونبَّه على هذا الجانب الحساس من العلاقة الزوجية لكونه مفتاحًا لكثير من الأمور ومسكنًا لغيره من المشكلات، قال ﷺ: (إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح)[٧].

وقد أرشد الشرعُ إذا شعر المسلم بالحاجة إلى إخراج مادَّةٍ ضارّة تحتبس في جسمه أن يُخرجها، فقد نهى النبي ﷺ عن الصلاة إذا كان صاحبها حاقنًا أو حاقبًا أو حازقًا أي حابسًا بوله أو برازه أو ريحه فقال: (لا صلاة بحضرة الطعام ولا هو يدافعه الأخبثان)[٨] والأخبثان البول والبراز. قال ابن مفلح: «قال الأطباء: حبس الريح إذا أراد الخروج يُورث الحصر وظلمة العين ووجع الفؤاد والرأس، وحبس البول يورث جميع هذه الأشياء مع الحصاة، وحبس البراز يورث ذلك كله»[٩].

وأخيرًا ..

فإنّنا ندرك من كل هذه التشريعات الربانية أن الإسلام يحرص على بناء المجتمع الصحي، ويربط أنظمة هذا البناء بدين أبنائه وتعاليمه لتكون ملزمة للمسلم، بل جعل الإسلام الأخذ بالأسباب مع تفويض الأمر لله من الأصول المقررة شرعًا.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩).
(٢) زاد المعاد، ص (٥٨٩).
(٣) حسن أخرجه أحمد (٣٣١٦) والترمذي (٢٠٥٢) وابن ماجه (٣٤٧٩) واللفظ له.
(٤) أخرجه البخاري (٥٦٩٦) ومسلم (١٥٧٧).
(٥) أخرجه البخاري (٥٧٠٠) واللفظ لابن حبان (٣٩٥٠).
(٦) أخرجه أحمد (٣٥٤٧).
(٧) أخرجه البخاري (٣٢٣٧) ومسلم (١٤٣٦).
(٨) أخرجه مسلم (٥٦٠) وأبو داود (٨٩)، وعند ابن ماجه (٦١٧): «نهى أن يصلي الرجل وهو حاقن».
(٩) الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح (٣٨٥/٢).

ضوابط منهجيّة وتربوية حول التعاطي مع الخلاف واحتوائه

أ. عاصم الحايك(*)

خلق الله الناس مُختلفين، وهذا جزءٌ من ابتلائهم، والناس إزاء هذا الاختلاف على طرفي نقيض، فريق يريد إلغاء الاختلاف أو المخالفين، وفريق يدعو إلى تجاهل الخلاف والامتناع عن الحديث فيه، ويدعو إلى تقبُّل جميع وجهات النظر بصوابها وخطئها، والمسألة وسطٌ بين طرفين، وللتعامل مع الخلاف قواعد وضوابط لا بد من إعمالها حتى تستقيم الأمور ويستبين الحق.

من المتقرّر أنّ الاختلاف سنةٌ ربّانية من سُنن الله تعالى في خلقه، وقد رسم أهل العلم ضوابط منهجيّة وقواعد علميّة تشكّل بمجموعها الخطوط الرئيسة في تكوين المنهج الصحيح لفقه الائتلاف، والطريق القويم في توجيه الخلاف واحتوائه والتعامل معه بإيجابيّة، عبر تأسيس قواعده وتأصيل ضوابطه؛ ليرتكز عليها مَن أراد للسفينة أن تُكمل مسيرتها، وللأمّة أن تعلو بأخلاقها، وللمسلمين أن يوحّدوا صفوفهم، لينجوا من هلكة التفرّق، وفشل التنازع، ولُجَج بحار الخصومة وغمرتها.

الضابط الأول: الرجوع إلى الكتاب والسنّة عند الاختلاف:

إنّ وحدة المرجعية الشرعية عند حدوث الاختلاف والتنازع له دور محوري وأساسي في احتواء الخلاف ورفعه، والتعاطي معه بشكلٍ إيجابي، ومِن هذا المنطلق أمر الله تعالى عباده المؤمنين بلزوم الرجوع إلى الوحيين عند وُقوع التنازع؛ قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

قال ابن القيم: «قوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ﴾ نكرةٌ في سياق الشرطِ، تَعُمُّ كلَّ ما تنازعَ فيه المؤمنون مِن مسائل الدين دقهِ وجلِّهِ، جَلِيِّهِ وخَفِيِّهِ، ولو لم يكن في كتاب الله ورسوله بيانُ حُكم ما تنازعوا فيه ولم يكن كافيًا لم يأمُر بالرَّدِّ إليه؛ إذ مِن الممتنع أن يأمرَ تعالى بالردِّ عند النزاع إلى مَن لا يوجدُ عندَه فصلُ النزاع»(١).

(*) باحث شرعي.

(١) إعلام الموقعين (١/٣٩).

وحدة المرجعية الشرعية عند حدوث الاختلاف والتنازع له دور محوري وأساسي في احتواء الخلاف ورفعه، والتعاطي معه بشكلٍ إيجابي، ومِن هذا المنطلق أمر الله تعالى عباده المؤمنين بلزوم الرجوع إلى الوحيين عند وقوع التنازع

ولزوم الاتِّباع هنا مِن مقتضى التسليم التامِّ لأمر الله تعالى، وأمر رسوله ﷺ، وهنا يبرز دورُ تعظيم نصوص الوحيين عند أطراف الخلاف، فالنزول إلى حكم الله ورسوله مِن لوازم العبودية التامّة لله تعالى، وثمرته هو الفلاح والفوز، كما وعد الله ذلك في محكم كتابه فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥١ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥١-٥٢].

وثمّةَ ضابطٌ آخر له اعتباراته العلمية، ودلالاتُه الواقعية في حسم مادة الخلاف ورفعه، وهو أن يكون الاستدلال بنصوص الوحيين وُفق فهم الأولين مِن القرون المفضّلة.

وترجيح جانب فهم الصحابة الكرام رضوان الله عليهم لنصوص الوحيين لكونهم أعلمَ الناسِ بسنّة رسول الله ﷺ، وبما أخبر به عن معنى مُراد الله تعالى، وهذه الحقيقة الشرعية أكّد عليها ابن عباس ﷺ عندما ناظر الخوارج فقال: «جئتُ أُحدّثكم عن أصحاب رسول الله ﷺ، عليهم نزل الوحي، وهم أعلمُ بتأويله»[1].

وفي تأييد هذ المعنى يقول الشاطبي: «يجب على كلِّ ناظر في الدّليل الشرعي مراعاةُ ما فهم منه الأولون، وما كانوا عليه في العمل به؛ فهو أحرى بالصّواب، وأقومُ في العلم والعمل»[2].

الضابط الثاني: تفعيل دائرة المتفق عليه والإسهام في بناء الأرضية المشتركة:

مِن الحقائق العلميّة أنّ دائرة المتّفق عليه بين المنتسبين للسنّة والجماعة أوسع مِن دائرة المختلف فيه، سواء في الجوانب المنهجية والسلوكية، أو في القضايا التعبّدية والفقهية، وإدراكُ مثل هذه الحقائق يحتّم على المربّين وطلبة العلم أنْ يوسّعوا مِن دائرة الخطاب الإسلامي، ويركّزوا على الجوانب المشتركة، لبناء مرحلةٍ مِن التعاون فيما بينهم تحقيقًا لمصالح الأمّة، وأنْ يتفهّموا أنّ دائرة القواعد الكلّية والمتّفق عليه ذات قطاع عريض في مجال الشريعة وتطبيقاتها العملية في الحياة.

ولعلّ المتأمّل في المشهد الثقافي يلحظ كَدَرًا ثقافيًّا، وصراعًا فكريًّا، وهدرًا لطاقات مثمرة، وضياعًا لكثيرٍ مِن المسلّمات، وإهمالاً للعديد مِن القطعيات لعلّ مِن مسبباته تفعيل دائرة المختلف عليه، وتعطيل أو تهميش جانب المتّفق عليه.

إنّ على العاملين في الحقل الإسلامي أن يسيروا في ركاب المشتركات، ورحاب المتّفق عليه، إسهامًا منهم في وحدة الصفّ، وإحياء المشتركات الوفاقية، ويتأكّد ذلك إبّان المحن التي تعصف بالأمّة المسلمة، والتي يجب عليها أن تترفّع فيها عن الخلافات، وتسعى إلى رأب الصدع، ورصّ الصفوف، وحشد الطاقات.

إن لم ندرك في مرحلتنا الحالية الحرجة أهمية تفعيل دائرة المتّفق عليها، فمتى سندرك ذلك؟ ويجب أن نوقن أننا لن نربح معركةً نحن جنودها وضحاياها في آن واحد

ونحسب أنّ الخطاب الإسلامي وبالرغم مِن المحن والأزمات التي تعصف بالأمّة لا يزال في كثيرٍ مِن مخرجاته يصدر مِن منطلقات ذات أطر ضيّقة، وقد آن لذلكم الخطاب أن يجدّد من لهجته، إذ إنّ تفعيل المشتركات في الواقع العملي لا يعدو كونَه إجراءً شكليًّا، وتصوّرًا تنظيريًّا.

ولن نُفْرِطَ في التفاؤل فليس ثمّة ما يدعو إلى ذلك في ظلّ الأُطر الفكرية التي أفرزها الواقع الإسلامي المرير، في مُرَكّبٍ صعب، ومزيجٍ متجانسٍ مِن التعصّب والديكتاتورية الفكرية.

وإنّ أنموذج الديكتاتوريات الذي مارسته بعض الحواضن التربوية في كثيرٍ مِن أنماطها التربوية تحول اليوم دون مدّ الجسور مع الآخر، بل وتُسهم في التقوقع الفكري، وبناء الحواجز،

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (١٨٦٧٨) واللفظ له، والنسائي في الكبرى (٨٥٢٢)، والطبراني في الكبير (١٠٥٩٨)، وغيرهم.
(٢) الموافقات (٢٨٩/٣).

فكيف لجيلٍ تربّى على ذلك أن يُدرك مفهوم بناء أرضية مشتركة مع الغير؟

ولعلّنا ومِن خلال نظرتنا إلى الخلافات بين الكيانات المعتدلة على الساحة الإسلامية نلمس أنّ هناك فجوة منهجية، وجفوة أخوية، وإن لم ندرك في مرحلتنا الحالية الحرجة أهميةَ تفعيل دائرة المتّفق عليها، فمتى سندرك ذلك؟ ويجب أن نوقن أننا لن نربح معركةً نحن جنودها وضحاياها في آن واحد.

الضابط الثالث: التماس العذر للمخالف المجتهد وعدم التثريب عليه:

إنّ التماس العذر للمخالف المجتهد يورث في القلوب محبةً وتآلفًا، وفي النّفوس رحمةً وطمأنينة، وهذا بابٌ من أبواب حسن ظنّ المسلم بأخيه المسلم.

فعن سعيد بن المسيب، قال: «كتب إليَّ بعضُ إخواني مِن أصحاب رسول الله ﷺ: أنْ ضعْ أمرَ أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغلبُك، ولا تظنّن بكلمةٍ خرجت مِن امرئ مسلم شرًّا وأنت تجد له في الخير محملاً...»[1].

وعن أبي قِلابة قال: «إذا بلغك عن أخيك شيءٌ تَجِدُ عليه فيه فاطلب له العذر بجهدك، فإن أعياك فقُل: لعلَّ عنده أمرًا لم يبلغه علمي»[2].

ولازمُ ذلك أن لا يُحمَل قولُ مَن اجتهد وأخطأ مِن أهلَ العلم والفضل على تعمّد المخالفة للصواب، بل يُلتمس له العذر؛ كأن لم يبلغه الحديث، أو لم يصحّ لديه سنده، وغير ذلك مما ذكره أهل العلم في مواضعه، وهذه الأعذار الملتمسة تحفظ المودّة والإخاء، وهذا ما فعلته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في الخلاف بينها وبين ابن عمر في مسألة تعذيب الميت ببكاء أهله عليه، فعن عمرة بنت عبد الرحمن: أنّها سمعت عائشة، وذُكر لها أنّ عبدالله بن عمر يقول: «إنّ الميت ليُعذّب ببكاء الحي»، فقالت عائشةُ: «يغفر الله لأبي عبد الرحمن أما إنّه لم يكذب، ولكنّه نسي أو أخطأ، إنّما مرّ رسولُ الله ﷺ على يهوديةٍ يُبكى عليها فقال: (إنّهم ليبكون عليها، وإنها لتعذب في قبرها)»[3].

ولا ريب أنّ المرء كلما كان أوسع علمًا كان أعذر للناس، وهذا مُشاهَدٌ في تجارب وممارسات علماء الإسلام، وموقفهم مِن مخالفيهم، فمن يتأمّل كلامهم في مؤلّفاتهم وسجالاتهم يجد أنّهم أسّسوا لمنهج علمي وتربوي رصين في الإنصاف والتعامل مع المخالفين.

ولعلّنا نسوق أحد النماذج اللطيفة في اعتذار الإمام الذهبي رحمه الله للأسود بن يزيد عندما ترجم له، ونَقَل عن الحَكَم: أنّه كان يصومُ الدهرَ، قال الذهبي: «هذا صحيحٌ عنه»، ثمّ قال معتذرًا له: «وكأنه لم يبلغهُ النهيُ عن ذلك، أو تأوَّل»[4].

وقال يحيى بن سعيد الأنصاري: «ما برح المستفتون يستفتون فيُحلُّ هذا ويحرّم هذا، فلا يرى المحرِّمُ أنّ المحلِّل هَلَكَ لتحليله، ولا يرى المحلِّلُ أنَّ المحرِّم هَلَكَ لتحريمه»[5].

وفي المقابل تجد مَن قَلّت بضاعته ونقص عقله: سريعَ المؤاخذة، ضيّقَ الأفق، متعجِّلاً في إطلاق التهم، ولذلك قيل: «العالم متردِّد، والجاهل متأكّد».

> **كلَّما كان المرء أوسعَ علمًا كان أعذرَ للناس، وهذا مُشاهَدٌ في تجارب ومُمارسات علماء الإسلام، وموقفهم مِن مخالفيهم، فمن يتأمّل كلامهم في مؤلّفاتهم وسجالاتهم يجد أنّهم أسّسوا لمنهجٍ علمي وتربوي رصين في الإنصاف والتعامل مع المخالفين**

الضابط الرابع: توفر الأهلية والكفاءة العلمية فيمن يتولّى مناقشة المسائل الخلافية:

إنّ دخول مَن تنقصهم المَلَكة العلميّة والتأصيل الشرعي في ساحات النقاش، وولوجهم في مسائل الخلاف، وإقحام أقلامهم في القضايا الخلافية

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٩٩٢).
(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢٨٥/٢)، والبيهقي في الشعب (٧٩٨٣).
(٣) أخرجه البخاري بنحوه (١٢٨٩)، ومسلم (٩٣٢) واللفظ له. وقد حمل أهل العلم أحاديث تعذيب الميت ببكاء أهله على مَن كان البكاء والنَّوح والعويل على الميت من عادته أو أوصى أهله بذلك، وليس لمجرّد البكاء عند المصيبة؛ فالنبي صلى الله عليه وسلم بكى عند الموت. وقد ظنّت عائشة رضي الله عنها أنّ ابن عمر أخطأ؛ لأنّها سمعت حديثًا آخر من النبي صلى الله عليه وسلم في اليهودية التي مرّ بقبرها، وفهمت منه أنّ أهلها يبكون لفقدها في حين أنّها تُعذّب بأعمالها.
(٤) سير أعلام النبلاء (٥٢/٤).
(٥) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (١٦٩١).

المصيرية للأمّة، يُذكي بدوره جذوة الخلاف، ويساهم في تأجيجه وإعادة إنتاجه؛ فكثيرٌ مِن حالات تفريق الصفّ المسلم والتراشق الفكري يقف وراءها مَن ليس له قدرة علمية أو شرعية تؤهّله للنقاش العلمي أو الخلاف محلّ النظر، ولذلك حددّ القرآن الكريم المرجعية الشرعية في الخلاف، فقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال تعالى في وصف أهل النفاق وضعاف الإيمان: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

وفي هذه الآيات يقرّر تعالى مرجعية التحدّث بقضايا المسلمين والشؤون العامّة المتّصلة بهم إلى أهل العلم «فبَيَّنَ أن ما يَنظُرُ فيه أُولو الأمر هو المسائلُ العامةُ كمسائل الأمن والخوف، وأن العامّةَ لا ينبغي لها الخَوضُ في ذلك، بل عليها أن تَرُدَّهُ إلى الرسول وإلى أولي الأمر، وأن مِن هؤلاءِ مَن يتولى أمرَ استنباطِهِ وإقناع الآخرين به»[١].

وهذا التنصيص القرآني على وحدة المرجعية أثناء النزاعات وفي قضايا الشأن العام يؤكّد دور أهل العلم والفضل والرئاسة في إدارة دَفّة الخلاف ومسائل النزاع، فلا يليق بهم موقف الحياد السلبي؛ إذ الأنظار تتّجه إليهم إبّان حدّة الاختلاف ليأخذوا موقعهم الطبيعي مِن إدارة الأزمات بالحكمة والإنصاف والرفق، ويرتقوا بالخلافات مِن الأساليب الهجومية إلى طرق أهل العلم والحكمة في التروّي، وإثبات الحقائق، وبث روح الألفة والمودّة، لذا يقرّر الإمام القرطبي هذه المسألة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، فيقول: «وليس لغير العلماء معرفة كيفية الردّ إلى الكتاب والسنة»[٢].

وهذا يؤكّد الدور المنوط بمراكز الدراسات العلمية والبحثية، والمتخصّصة في الشأن العلمي والدعوي، وعِظَم الأمانة العلمية الملقاة على كاهلها، لا سيما وقد بَرَزت على الساحة في المقابل مراكز بحثية مشبوهة في أدوارها وأطروحاتها؛ تصدّرت المشهد الثقافي في القضايا المصيرية للأمّة.

وحالُ هؤلاء القوم مِن المتربّصين بالإسلام ودعاته ينطبق عليه ما وصف به علي بن أبي طالب ﷺ أحدَ الذي ظهروا وقت الفتنة حيث قال له: «لقد كانت الجماعةُ فكنتَ فيها خاملاً، فلما ظهرت الفتنة نجمتَ فيها نجوم قَرن الماعز»[٣]!.

> **مسؤولية إدارة دفة الخلاف تقع على عاتق أهل العلم، ولا يليق بهم موقف الحياد السلبي؛ إذ الأنظار تتّجه إليهم إبّان حدّة الاختلاف ليأخذوا موقعهم الطبيعي مِن إدارة الأزمات بالحكمة والإنصاف والرفق، وإثبات الحقائق، وبث روح الألفة والمودّة**

الضابط الخامس: تجنّب أسلوب الاستفزاز، ومحاولة احتواء المخالف بتسكين الثائرة.

يَعمدُ بعض المثقّفين إلى محاولة إظهار ما يرونه مِن الحق، وإقامة الأدلّة والبراهين عليه، والردّ على المخالفين وتفنيد حججهم، لكن بطريقة تتدنّى فيها لغة الحوار والنقاش، ويرتفع فيها أسلوب الاستفزاز والاستعلاء، وتسفيه آراء الآخرين، وإسقاط اجتهادات المخالفين، والهمز واللمز تصريحًا أو تلميحًا لأئمة المخالفين وأشياخهم، ظنًّا منهم أنّهم يحسنون صنعًا، وما علموا أنّ «الحقّ يُصرع إذا عُمد إلى إظهاره بالسُّباب والشتائم»[٤].

فسلوك منهج الاستخفاف بالمخالف، وارتفاع نبرة التحدّي ينتج عنه ردودُ أفعالٍ غير محمودةٍ مِن معاندة ومكابرة وتعصّبٍ لدى الطرف الآخر؛ لأنّ «الطعن في مساق الترجيح يُبَيِّنُ[٥] العنادَ مِن أهل المَذهَب المطعون عليه، ويزيد في دواعي التمادي والإصرار على ما همَ عليه؛ لأن الذي غُضَّ من جانبه مع اعتقادِهِ خِلافَ ذلك حقيقٌ بأن يتعصّبَ لما هو عليه ويُظهِرَ محاسنَه؛ فلا يكونُ لِلتَّرْجيح الـمَسُوق هذا الـمَساقَ فائدة زائدَةٌ على الإغراء بالتزام المَذهب وإن كان مَرْجُوحًا؛ فكأنّ الترجيحَ لم يحصل»[٦].

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (١٥٦/٥).
(٢) تفسير القرطبي (٢٢٥/٥).
(٣) سير أعلام النبلاء، للذهبي (١١٩/١-١٢٠).
(٤) قواعد التحديث، للقاسمي، ص (٢٩).
(٥) أي: يثيره.
(٦) الموافقات، للشاطبي (٢٨٧/٥).

ضوابط منهجيّة وتربوية حول التعاطي مع الخلاف واحتوائه

١. الرجوع إلى الكتاب والسنّة عند الاختلاف

٢. تفعيل دائرة المتفق عليه والإسهام في بناء الأرضية المشتركة

٣. التماس العذر للمخالف المجتهد وعدم التثريب عليه

٤. توفر الأهلية والكفاءة العلمية فيمن يتولّى مناقشة المسائل الخلافية

٥. تجنّب أسلوب الاستفزاز، ومحاولة احتواء المخالف بتسكين الثائرة

٦. الإنصاف والعدل مع المخالفين

٧. الإبقاء على أواصر الأُخُوَّة وروابط الألفة بين المختلفين

إن طُرقَ الاستفزاز التي يسلكها بعض المثقّفين تأخذ أطيافًا متنوّعة مِن مناحي المشهد الثقافي والحياة العلمية، فمن عنوانٍ لكتاب تقرأ بين حروفه الاستفزاز النفسي والاستعلاء العلمي، وبين مقالٍ يرسّخ التعصّب والحزبية المقيتة، وبين مناظرات ونقاشات جدلية عقيمة ذات نبراتٍ هجومية، عبر سلاح رفع الصوت وحِدّة اللهجة، في تحدٍّ صارخ للمخالف وإيغارٍ لصدره؛ مما يضع المخالفَ في حالةٍ نفسية تحمِله على الدفاع عن نفسه، وتدفعه إلى تبرير موقفه، وكثيرًا ما تمنعه مِن قبول الحق؛ مهما سمع من الحجج والأدلّة والبراهين، وهذه من القضايا الـمُسَلّمة لدى العقلاء وأهل الفطنة؛ إذ إنّ «أكثَر الجهالاتِ إنما رسختْ في قلوبِ العوامِّ بتعصُّبِ جماعةٍ من جُهّالِ أهل الحقّ، أظهرُوا الحقّ في مَعْرِضِ التّحدّي والإدلاءِ، ونظروا إلى ضُعفاء الخُصوم بعينِ التّحقيرِ والإزراء، فثارت من بواطنِهم دَواعِي الـمُعاندةِ والـمُخالفةِ، ورَسَخَتْ في قلوبِهم الاعتقاداتُ الباطلةُ، وعَسُرَ على العلماء المتلطّفين مَحْوُهَا مع ظُهُورِ فسادها»[(١)].

قال الشاطبي معلّقًا على مقولة الغزالي، ومقرّرًا بذلك قاعدةً ذهبيةً في التّعامل مع الخلاف واحتوائه: «هذا ما قال، وهو الحقُّ الذي تَشْهَدُ له العَوائِدُ الجاريَةُ، فالواجبُ تَسْكينُ الثّائِرةِ ما قُدِرَ على ذلك»[(٢)].

إنّ عدم بلوغ مرحلة النضوج الفكري لدى بعض المثقّفين أوجب إخفاقًا علميًّا وعمليًّا في إدارة بعض ملفّات الخلاف الشائكة من خلال ممارسة تأجيج الصراعات الثقافية عبر أطروحات عقيمة، ومناقشات تتّسم بضيق الأفق وشخصنة المواقف، وتغليب المصالح الضيّقة على مصلحة وحدة الصفّ، واجتماع الكلمة.

والمأمولُ مِن أهل الحكمة أن يمارسوا دورهم وواجبهم تجاه القضايا الخلافية ذات المنحنى الجدلي بسلوك منهج (تسكين الثائرة) في التعاطي مع الخلافات عبر المسارات التالية:

المسار الأول: تحييد مَن قَصُرَ نظرُه في العلوم الشرعية، وتقديم مَن جلّ قدره، وعلت مكانته، ورجح عقله، وعركته التجارب.

المسار الثاني: التخفيف مِن التواصل السلبي مع مَن ينتهج أسلوب الاستفزاز، والترفّع عن مناقشته، والسعي إلى عدم استثارته، فمن يجيدون

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي، ص (١٥).
(٢) الاعتصام، للشاطبي (٧٣٢/٢).

الاستفزاز الفكري كَثُرَ سوادهم، وعلى المسلم أن يتعاطى معهم بموجب التوجيهات الربانية: ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، وبالإعراض عنهم: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وعدم الاكتراث بهم: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

بل إنّ رجاحةَ عقل المسلم وفطنته تجعله لا ينقاد إلى ساحاتٍ جدلية لا تتميّز بإطارٍ علمي وثقافي واضح، فليس كلُّ مَن غرّد أو كتب يجب الرد عليه:

وما كلُّ برقٍ لاحَ لي يستفزُّني
ولا كلُّ مَن في الأرضِ أرضاه مُنْعِما

> **كم مِن سِهام البنان تحوّلت في بعض الخلافات إلى سنانٍ يَرمِي بها المختلفون بعضهم تحت مظلّة الخلاف الفكري والفقهي، بعيدًا عن الإنصاف والعدل، متناسين أنّ المناظرةَ والمحاجَّةَ لا تنفع إلا مع العدل والإنصاف**

الضابط السادس: الإنصاف والعدل مع المخالفين:

الإنصاف خُلُقٌ عزيز، وحِليةٌ لازمةٌ، وهو مِن الأخلاق الفاضلة التي دعا إليها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

قال الزيلعي: «وما تحلَّى طالبُ العلم بأحسَنَ مِن الإنصاف، وترك التعصّب»[(١)].

«واللهُ تعالى يحبُّ الإنصاف، بل هو أفضل حليةٍ تحلَّى بها الرجل، خصوصًا مَن نَصَّبَ نفسه حكمًا بين الأقوال والمذاهب، وقد قال الله تعالى لرسوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥]، فوَرثةُ الرسولِ مَنْصِبُهم العدلُ بين الطوائف، وألا يميلَ أحدُهم مع قريبِه وذوي مذهبِه وطائفتِه ومتبوعِه، بل يكون الحقُّ مطلوبَه، يسيرُ بسيره، وينزلُ بنزوله، يدينُ دين العدل والإنصاف، ويُحكّمُ الحجة...»[(٢)].

ومِن المنهج القرآني في تأصيل مبدأ الإنصاف: التحذير مِن أن تكون العداوة سببًا لمجانبة العدل، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨].

وعلى هذا سار أهل السنّة والجماعة، وصار هذا شعارًا لهم، فهم أهلُ الإنصاف والرحمة والعدل، حتى مع مَن ظَلَمَهم وجَار عليهم.

فكم مِن سِهام البنان تحوّلت في بعض الخلافات إلى سنانٍ يَرمِي بها المختلفون بعضهم تحت مظلّة الخلاف الفكري والفقهي، بعيدًا عن الإنصاف والعدل، ولعلهم تناسوا أنّ «المناظرةُ والمحاجَّةُ لا تنفع إلا مع العدل والإنصاف»[(٣)].

إنّ ممارسة مبدأ الإنصاف في حلّ النزاعات والخلافات يشوبه بعض الشوائب العملية عند التطبيق، وتتمثّلُ في أمرين:

الأول: البَون الشاسع في مبدأ الإنصاف بين النظرية والتطبيق، فالتنظير وتقعيد القواعد ووضع الأسس أمر يسير، لكنّ الإشكاليات تظهر عند التطبيق العملي حيث تحذو كثير مِن النفوس إلى ممارساتٍ تتّسم بالجَور والعدوان مع إخوانهم، في قضايا لا تعدو أن تكون ذات منحىً اجتهادي.

وهذا ما جعل الإمام مالكًا رحمه الله يقول: «ما في زماننا شيءٌ أقلّ مِن الإنصاف!»[(٤)].

قال الشاعر:

ولمْ تزَلْ قلّةُ الإنصافِ قاطبةً
بيْنَ الرجالِ وإنْ كانُوا ذوِي رَحِم

الثاني: إلباس عدم إنصاف الآخرين لباس الشريعة والدين، وهذا ما لبّسه الشيطان على بعض طلبة العلم، وهو ما قرّره ابن رجب حيث قال: «ولما كثر اختلافُ الناس في مسائل الدين، وكثر تفرّقهم، كثر بسبب ذلك تباغضهم وتلاعنهم، وكلٌّ منهم يُظهر أنّه يُبغض لله، وقد يكون في نفس الأمر معذورًا، وقد لا يكون معذورًا، بل يكون متّبعًا لهواه، مقصّرًا في البحث عن معرفة ما يُبغض عليه،...»[(٥)].

(١) نصب الراية (٣٥٥/١).
(٢) إعلام الموقعين، لابن القيم (٧٨/٣).
(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٠٩/٤).
(٤) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر (٥٣١/١).
(٥) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (٢٦٧/٢).

وقد نبّه إلى هذه المسألة أيضًا ابن الجوزي فقال: «ومِن تلبيس إبليس على أصحاب الحديث قدحُ بعضهم في بعض طلبًا للتشفّي، ويُخرجون ذلك مخرجَ الجرح والتعديل الذي استعمله قدماءُ هذه الأمّة للذبّ عن الشرع، واللهُ أعلم بالمقاصد»[١].

فإسقاط بعضهم للمؤسسات العلمية، والكيانات الشرعية، إنّما يتمّ عبر رؤى تتخذ مِن المنهجية الدينية ستارًا أو واجهةً لضمان الحاضنة الشعبية، فتتكسّر على عتباتها نظريات الإنصاف والعدل.

إنّنا نفتقد الإنصاف في رؤيتنا لكثير مِن الأحداث التي لا تنسجم مع توجّهاتنا ونمط تفكيرنا، ونفتقده في تقويم الأشخاص ومناهجهم، وفي دراساتنا ونقدنا لمخالفينا؛ في منظور سلبي للتعايش مع إخوة الدين بدعوى احتكارِ الحقّ وإسقاط الآخرين، وقد قال ابن سيرين: «ظلمٌ لأخيك أن تذكر منه أسوأ ما رأيتَ، وتكتم خيره»[٢].

وحالنا كما حكاه الشاعر:

أصُمُّ عن الأمر الذي لا أُريدهُ
وأسمعُ خلقَ الله حين أشاءُ

> **واقعُ الحال يتطلّب تربية النشء المسلم على سلامة الصدور، وتأصيل مفهوم الأخوّة الإسلامية، والدُّربة على النقاشات الهادئة والهادفة، والتأكيد على أنّ تباين الآراء واختلاف العقول لا يُفسد أواصِر الأُخوّةِ وروابط الألفة والمحبّة، ضمن الضوابط الشرعية**

الضابط السابع: بقاء أَواصر الأُخُوَّة وروابط الألفة بين المختلفين:[٣]

إنّ الاختلاف والتباين في الآراء لا يُسَوِّغُ للمختلفين قطعَ روابط الألفة والمودّة، بما يخالف مقتضى الأخوّة الإسلامية، والمحبّة الإيمانية، ولا يجيز لهم أن تتحوّل الخلافات فيما بينهم إلى فرقة وتدابر وتنافر، والأمر كما قيل: (في الرأي تضطغن العقول، وليس تضطغن الصدور)، ومِن المقرّر لدى أهل السنّة: أن مُتَعَلَّق الولاء والبراء: الإيمان والاتّباع والعمل الصالح، وليس مجرّد المخالفة أو الردّ والمجادلة[٤].

وهذا المفهوم أدركه الصحابة الكرام نظريًّا، وطبّقوه عمليًا، فقد اختلفوا «وكانوا مع هذا أهلَ مودّة وتناصح، وأخوّةُ الإسلام فيما بينهم قائمة»[٥].

قال يونس الصدفي: «ما رأيت أعقلَ مِن الشافعي، ناظرتُهُ يومًا في مسألة ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى، ألا يَسْتَقيمُ أن نكون إخوانًا وإن لم نتّفق في مسألة؟!»[٦].

وواقعُ الحال يتطلّب مِن المربّين تربية النشء المسلم على وحدة القلوب، وسلامة الصدور، وتأصيل مفهوم الأخوّة الإسلامية، والدُّربة على النقاشات الهادئة والهادفة، والتأكيد على أنّ تباين الآراء واختلاف العقول لا يُفسد أواصِر الأُخوّةِ وروابط الألفة والمحبّة، ضمن الضوابط الشرعية في ذلك.

«نعم لا بأس أن تُنتقد الأقوال، وتُضعّف بالبرهان، ويُوضَّح كلّ خطأ ينجم عنها، ولكنّ الذي يجب التوقّي منه هو: أن يتشاحن قادةُ العقول ويتطاحنوا ويتباغضوا لما لا يصحّ أن يكون سببًا معقولاً، وأن يَثِبَ كلٌّ على مُخالِفه وَثْبَةَ الغادر المنتقم، فيودّ أن ينكّل به، أو يمزّقه شرّ ممزّق، فيقتفي أثرَهم مقلّدُهم، فتصبح الأمّةُ أعداءً متشاكسة، وأحزابًا متنافرة، بشؤم التّعصّب الذّميم، الذي لم يتمكّن من أمّة إلّا وذهب بها مذهب التّفرّق والانحطاط، وأَضعَفَ قُواها، وأحاق بها الخطوب والأرزاء، فمِن الواجب العملُ على ملاشاة الشحناء والشقاق، والقيام بالتحابّ والاتفاق»[٧].

(١) تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص (١٠٥).
(٢) البداية والنهاية، لابن كثير (٢٧٥/٩).
(٣) المقصود هنا: الأخوة ضمن دائرة الخلاف بين أهل السنة والجماعة وفي الخلاف السائغ.
(٤) فقه الرد على المخالف، للدكتور خالد السبت، ص (١٦٢) بتصرف يسير.
(٥) الاعتصام، للشاطبي (٧٣٤/٢).
(٦) سير أعلام النبلاء، للذهبي (١٦/١٠).
(٧) تاريخ الجهمية والمعتزلة، لجمال الدين القاسمي، ص (٩٧).

تزكية

مشكلة النفَقَة في بيت النبوَّة

أ. عبد المعين الطلفاح(*)

تتتابع الأزمات المالية والاقتصادية وتلقي بظلالها على واقع المجتمع والأسرة، وكما تَستُر وفرة المال كثيرًا من المشكلات والخلافات العائلية، فكذلك تكشف قِلَّة ذات اليد الكثير من الثغرات وتزيد من حجم المشكلات، وهنا يبرز سؤال حول البيت النبوي: هل عانى من مشكلة النفقة؟ وماذا كان موقف أمهات المؤمنين ﵃؟ وكيف أجابهن النبي ﷺ؟

عاش رسول الله ﷺ حياة عادية كغيره من الناس، لا تخلو من الألم والمرض وقلة ذات اليد، وسائر ما يعتري البشر من عوارض الحياة اليومية، ونقلت لنا كتب السنة والسيرة تفاصيل مواقفه وتصرفاته ليتأكَّد الناس من بشريته فلا يغلون فيه، وليقتدوا بسنته وحكمته في سائر أمورهم وشؤونهم، ومن ذلك الأحداث التي جرت في بيته مع أزواجه أمهات المؤمنين ﵃ بحلوها ومُرِّها.

تكشف لنا سورة الأحزاب عن جانب مما وقع بين رسول الله ﷺ ونسائه من خلاف حول النفقة، وذلك أنه لـمَّا دخلت جزيرة العرب في الإسلام، ووسع الله على نبيه ﷺ، وصارت تأتيه الصدقات والغنائم؛ رأت أمهات المؤمنين بيوتات المسلمين من حولهن قد توسع أصحابها في أمور الدنيا؛ فجئن إلى رسول الله ﷺ يطلبن السعة وزيادة النفقة، وراجعنه حتى آذاه ذلك؛ فأغضب ذلك رسولَ الله ﷺ، وهجَرهنّ شهرًا، وتغيّر على أصحابه، حتى إن بعضهم قد استأذن عليه فلم يأذن له، وتحدث الناس خلال ذلك أن رسول الله ﷺ طلّق نساءه، ودام ذلك الحال حتى نزل فيه قرآن يتلى في سورة الأحزاب.

> **ترفَّع النبي ﷺ عن الدنيا وملذاتها، وزهد عن التنعم بها مع مقدرته على ملكها، غير أنه لم يمنع نفسه وآل بيته مما يجد من طعام وملبس ومركب**

لقد خيَّر الله تعالى نبيَّه ﷺ بين أن يجعله مَلِكًا نبيًا، أو عبدًا رسولاً؛ فاختار أن يكون عبدًا رسولاً(١)، وكان ﷺ يدعو ربه أن يجعل رزقه ورزق

(*) دراسات عليا في الفقه وأصوله.

(١) أخرجه أحمد (٧١٦٠).

آله قوتًا[1]، أي ما يسد به الرمق، فقد ترفَّع النبي ﷺ عن الدنيا وملذاتها، وزهد بها، مع أنه لم يمنع نفسه وآل بيته مما يجد من طعام وملبس ومركب، وكان ﷺ يأمل أن يختار تلك المعيشة نساؤه وآلُ بيته؛ فلـمَّا عَصيْنَهُ غضب ﷺ من ذلك.

وأنزل تعالى الحكم فيما طلبه نساءُه قرآناً يُتلى، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ۝٢٨ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨-٢٩]، فبيَّنت هذه الآيات أن أمهات المؤمنين لسن مجبرات على تحمل هذه المعيشة التي اختارها لنفسه، ولا هو ﷺ مُكلَّفٌ أن يبذل لهنَّ ما ليس عنده؛ وإنما جعل الله حلَّ هذه القضية أن يخيِّر رسول الله ﷺ نساءه بين أن يُطلِّقهن، أو أن يصبرن على هذه المعيشة التي اختارها رسول الله لنفسه، ولهن على ذلك الأجر العظيم عند الله تعالى، ولـمَّا خيَّر رسول الله ﷺ نساءه؛ اخترنَ كلُّهن ما عند الله تعالى، وحُلَّ بذلك هذا الإشكال داخل البيت النبوي.

> **عولجت قضية النفقة في بيت النبوة بتخيير الرسول الله ﷺ زوجاته بين أن يُطلِّقهن ويتمتَّعن بالحياة التي يُردن، أو أن يصبرن على المعيشة التي اختارها، ولهن على ذلك الأجر العظيم، فاخترنَ كلُّهن ما عند الله تعالى**

إنَّ قضية النفقة والمصروف سببٌ رئيسٌ للمشكلات الزوجية اليوم، فمن النساء من تخرج من بيتها وترى ما عند غيرها من أمور الدنيا، أو تسمع عنه من صاحباتها، أو تطلع عليه عبر وسائل التواصل الاجتماعي، فتأمل أن تعيش عيشتهم، وتتطلَّع لمستواهم المادي، فتطلب من زوجها ما ليس عنده. ومن الأزواج من يجهل حدود ما يجب عليه من النفقة أو لا يحسن معالجة تلك القضية إلا بالإنكار والصراخ، ولربما تشتدُّ ردّة فعله فتقع بذلك الخلافات الأسرية، ويتصدع بنيان الأسرة، ويوشك على السقوط، أو يسقط بالفعل.

وقد تلجئه هذه الطلبات إلى الاستدانة بما يفوق قدرته على الوفاء، أو تمتد يده إلى ما لا يحل له فيعرض آخرته للخطر، ويتسبب في إطعام أهل بيته مالاً حرامًا.

إنَّ التعامل مع هذه المسألة يتطلب من كل من الرجل والمرأة خطوات عديدة، والرجل بما أنَّه القائم على الأسرة ومدبر شؤونها فينبغي عليه أن يعمل بما وجَّه إليه الشرع؛ فإن كان قد وسَّع الله عليه فينبغي أن يوسّع على زوجته وأهل بيته، وليتذكر أن كلَّ ما يبذله لأهله فإنه مأجور عليه من الله تعالى، وأن الله سيخلفه له، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، وقال ﷺ: (ولن تُنفِق نفقةً تبتغي بها وجهَ اللهِ إلا أُجِرتَ عليها، حتى ما تجعلُ في فِي امرأتِكَ)[2].

أما من يبخل فقد حذَّره الشرع من ذلك، قال ﷺ: (كفى بالمرءِ إثمًا أن يُضيعَ من يقوتُ)[3]، وقال ﷺ: (واتقوا الشُّحَّ، فَإِن الشُّحَّ أَهلَكَ مَن كانَ قَبلَكُم)[4].

ثم يدعو آل بيته للرضا بما قسم الله لهم، ويُرغِّبهم بما أعده الله للصابرين، وأنَّ الله تعالى لم يرضَ الدنيا لنبيه ﷺ[5]، ثم إنَّ الله تعالى لا يُكلِّف نفسًا إلا وسعها، والله تعالى قد ذكر النفقة وما أوجبه على الأزواج فقال: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]، وسئل رسولُ اللهِ ﷺ: ما حقُّ زَوجةِ أحدِنا علَيهِ؟ قالَ: (أن تُطعِمَها إذا طَعِمتَ، وتَكسوها إذا اكتسَيتَ، ولا تضربِ الوجهَ، ولا تُقَبِّح، ولا تَهجُرْ إلا في البيتِ)[6]، فيكفي أن يقول الرجل لأهله: إني لا أملك ما تطلبون، وإن الله تعالى لا يكلف نفسًا إلا ما آتاها، فإن رضيت الزوجة بذلك وقنعت فهو خير، وإن لم تستطع الصبر على حياة الفقر والعوز؛ فإن الله تعالى لم يجبرها على البقاء مع هذا الزوج.

(١) أخرج مسلم (١٠٥٥): (اللهم اجعل رزق آلِ محمدٍ قُوتًا).
(٢) أخرجه البخاري (٥٦٦٨)، في في امرأتك: أي في فم امرأتك.
(٣) أخرجه أبو داود (١٦٩٢)، ومعنى (مَنْ يقوت): مَن تَلزمُه نَفقتُهم من الأهل والعيال.
(٤) أخرجه مسلم (٢٥٧٨)، والشحّ هو: البُخلُ الشديد، مع الحرص على ما ليس من حقّه.
(٥) لم تكن حياة النبي صلى الله عليه وسلم مترفة ولا منعمة، بل كانت عيشة كفاف، يجوع فيها حتى يربط الحجارة على بطنه من شدة الجوع، ويمضي الشهر والشهران ولا يوقد في بيوته نار، وينام على الحصير ويتوسد الرمل حتى يتأثر جنبه صلى الله عليه وسلم.
(٦) أخرجه أبو داود (٢١٤٢).

أدوار الزوجين في مواجهة المشكلات المالية في البيت

واجبات الرجل	واجبات المرأة	واجبات مشتركة
التحلي بالحكمة وعدم المواجهة بالغضب ورفع الصوت	القناعة بما رزقها الله عن طريق زوجها	الحوار وسعة الصدر في حل المشكلات وإيجاد الحلول
الإنفاق مما رزقه الله بالمعروف على أهل بيته وعدم البخل	ألا تطلب ما تعلم أنه فوق طاقة زوجها	الاستنارة بسيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام
احتساب الأجر في الإنفاق على البيت	عدم اعتياد التطلع إلى ما عند الآخرين	تقوى الله تعالى واحتساب ما عنده من الأجر العظيم والعاقبة الكريمة
توعية أهل بيته بالصبر، وأن الله لا يكلف الله نفساً إلا وسعها	إحسان تدبير الأمور المالية للبيت	

على الزوجين أن يعيا أن كثيرًا من الخلافات حول النفقة لا يكون سببها الرجل فحسب ولا المرأة فحسب، وإنما كلاهما فيه شريك، فالمرأة قد تطلب من زوجها فوق طاقته، والرجل قد يبخل أو يقتّر على أهل بيته، والواجب من الطرفين الاعتدال والتوسط

وعلى المرأة أن تقنع بما رزقها الله عن طريق زوجها، ولا ترهقه بطلباتها التي تتجاوز حدّ المعقول؛ فقد قال النبي ﷺ للمرأة التي سألته عمّا يجب لها من مال زوجها: (خُذي ما يَكفيكِ وولدَكِ بالمعروفِ)[1]، أي بالقدر الذي يُعرف بالعادة أنَّ فيه الكفاية بلا إسراف. وأن تُحسِنَ تدبير أمور بيتها المالية؛ فحسن التدبير نصف المعيشة.

إن على الزوجين أن يعيا أن كثيرًا من الخلافات الزوجية حول النفقة لا يكون سببها الرجل فحسب ولا المرأة فحسب، وإنما كلاهما فيه شريك، فالمرأة قد تطلب ما ليس عند زوجها، أو فوق طاقته، أو تريد أن تتوسع إلى ما لا يمكنه توفيره؛ والرجل قد يبخل أو يشح أو يقتّر على أهل بيته، والواجب من الطرفين الاعتدال والتوسط، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]. مع حسن الطلب والعرض والحديث من الطرفين دون تجاوز أو إيذاء.

لقد كان من حكمة الله تعالى أن تقع هذه القضية في بيوتات النبي ﷺ، ويكشفها الله لنا، ثم يُنزل فيها قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة، وذلك لحكم كثيرة، من أبرزها: أن تتخذها الأمة منهجًا لما يعرض لها من خلافات أسرية حول النفقة وما يتعلق بها.

(١) متفق عليه: البخاري (٣٨٢٥)، ومسلم (١٧١٤)

مقاصدُ العمل التطوُّعي في الإسلام

د. مصطفى بوهبوه(*)

التطوع مبدأ أصيل في شريعتنا الغراء، فهو قرين لأداء الواجبات والفرائض ومكمل لها، وبه يكمل المرء إيمانه ويُزيِّن خُلقه ويتقرب من ربه وينفع مجتمعه، وللتطوع بمعناه العام مقاصد وغايات، تسهم في البناء الإيجابي للمجتمع، والنهوض الحضاري للأمة.

الإسلام دين العطاء، والمرء إذا تمكن الإيمان من روحه وخالطت حلاوته بشاشة قلبه؛ فإن طباع البخل والشحِّ تتلاشى من نفسه، ويصبح كريمًا معطاءً لا يبخل بمال ولا يضنُّ بجُهد، يحدوه في عطائه موعود ربه العظيم، وفيضٌ من الجواد الكريم يبلغ عشرةَ أضعافٍ لكل حسنةٍ إلى سبعمائة ضعف، وحفظٌ من العذاب الأليم الذي توعَّد الله به مانعي الزكوات والصدقات والمتلذِّذين بمعاناة الضعفاء.

فالعطاء يزداد إذا زكَت نفس المرء، وبالعطاء تزكو النفوس، والعلاقة بينهما تبادلية تفاعلية على المستوى الفردي، وهي أوضح وأعمق أثرًا على المستوى الجماعي، فالمجتمع المتراحِم أقرب إلى رحمة الله ورضاه من غيره، ولذلك شرع الله تعالى العمل التطوعي وجعله شعيرةً ثابتة من شعائر الشريعة الإسلامية السمحة، تحقِّق للمجتمع المسلم عددًا من المقاصد الجزئية، التي كانت وما زالت سمات يتميز بها ويعرف بها.

المقصد الأول: ديمومة العطاء واستمرارية البذل:

إنَّ مقصود الشريعة الأعظم من التبرعات والأعمال التطوعية هو إقامة مصالح ضعاف المسلمين وقضاء حوائجهم التي لا تستقيم حياتهم العادية إلا بتلبيتها، ولا يبلغ هذا المقصد تمامه إلا إذا كان الإنفاق بمقادير ذات بالٍ وبصورة دائمة وعامة، قال الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، لأنَّ دوام الإنفاق وعمومه لا يحصل إلا ببذل ما لا يشقُّ على المنفقين ولا يثقل عليهم، قال العلامة الشيخ الطاهر بن عاشور في

(*) حاصل على الدكتوراه في الفقه والأصول – المغرب، وللكاتب عدة مواد في الموضوع، منها كتاب "العمل الخيري التطوعي أصوله وأبعاده".

تفسير هذه الآية: «وإنما يحصل التعميم والدوام بالإنفاق من الفاضل عن حاجات المنفقين، فحينئذ لا يشق عليهم فلا يتركه واحد منهم، ولا يُخِلُّون به في وقت من أوقاتهم، وهذه حكمة بالغة وأصل اقتصادي عمراني»[١]، وقد قال ﷺ: (خير الصدقة ما كان عن ظهر غنىً، وابدأ بمن تعول)[٢]، ولأنه لا يجب أن يُفهم من هذا الحديث أن الإنفاق الصادر عن غير غنى هو دون ذلك، فإن ثناء الشريعة على إنفاق الغني لا يُنقص من فضل إنفاق المُقلِّ شيئًا، بل ذلك خاضع لما يحوط الإنفاق من الاستمرارية عند الغني والتضحية عند الفقير، ولذلك قال النبي ﷺ وقد سئل: أي الصدقة أفضل؟ فقال: (جهد المقل)[٣].

> **إنَّما يحصل التعميم والدوام بالإنفاق من الفاضل عن حاجات المنفقين، فحينئذٍ لا يشقُّ عليهم فلا يتركه واحدٌ منهم، ولا يُخِلُّون به في وقت من أوقاتهم، وهذه حكمة بالغة وأصل اقتصادي عمراني**
>
> الطاهر بن عاشور رحمه الله

وإقامة لهذا المقصد ندب الشرع الحنيف إلى جملة من التصرفات المعينة على إقامة هذا المقصد وإتمام نفوذه واستكمال هيئته، وعلى رأسها الأحباس والوصايا والعواري والهدايا والصدقات، وجميع أنواع التبرعات والهبات، حيث جعلت المصلحة العاجلة في هذه التصرفات للمقلين القابضين الذين هم أحوج إليها في دار الغرور، وجعلت المصلحة الآجلة للباذلين المنفقين الذين هم أحوج اليها في دار القرار.

فالوقف على سبيل المثال يحقق مصلحة واضحة لما فيه من الصلة وإغاثة الملهوف وإغناء المحتاج، وإقامة كثير من مصالح المسلمين، وفي هذا السياق يقول ابن راشد القفصي مبينًا الحكمة من تشريعه: «تكثير الأجر وعموم النفع ومراعاة مقاصد العبيد بعد الممات، والتنبيه على أن أعمالهم محفوظة عليهم»[٤].

ومن ضمن ما يندرج في سلم هذه المعاني ما نقله الونشريسي في معياره عن محيي الدين النووي لما سئل عن سلطان اشترى من بيت المال أرضًا أو غيرها ووقفه على شيء من مصالح المسلمين كمدرسة أو مارستان أو رباط أو خانقات أو زاوية أو رجل صالح وذريته ثم على الفقهاء، هل يصح وقفه على ذلك أرضًا لبيت المال؟

فأجاب: «نعم يصح وقفه من بيت المال إذا رأى ذلك مصلحة لأن مال بيت المال لمصالح المسلمين وهذا منها»[٥].

فكانت ديمومة العطاء واستمراريته مقصدًا عظيمًا من مقاصد الشريعة وغاياتها.

المقصد الثاني: جلب المصالح للمحتاجين ودرء المفاسد عنهم:

العمل التطوعي من أهم الوسائل التي تحقق مصالح ضعاف المسلمين وقضاء حاجات المعوزين وسد خلة الفقراء منهم وإجابة المضطرين، والمعلوم في علم المقاصد أن الوسائل تأخذ حكم الغايات، والمبدأ الأصلي للمقاصد هو درء المفاسد وجلب المصالح، يقول الإمام ابن القيم: «فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها ورحمة كلها، وحكمة كلها»[٦]؛ لأن «الله أمر بكل خير دقّه وجلّه، وزجر عن كل شرّ دقّه وجلّه، فإن الخير يعبر به عن جلب المصالح ودرء المفاسد، والشر يعبر به عن جلب المفاسد ودرء المصالح»[٧].

فالتبرعات -على سبيل المثال لا الحصر- من بين الوسائل الناجعة في تحقيق أصل جلب المصالح ودرء المفاسد عن المحتاجين وغيرهم. يقول الإمام السرخسي في شأنها: «إن التبرعات مشروعة في الأصل للإيثار بالعين لا لإيجاب شيء منها في الذمة»[٨]. بل إنها على حد تعبير الإمام العز بن عبدالسلام وسيلة

(١) التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور (٣٥١/٢).
(٢) أخرجه البخاري (١٤٢٦).
(٣) أخرجه أبو داود (١٦٧٧).
(٤) لباب اللباب، لابن راشد القفصي، ص (٢٣٧).
(٥) المعيار المعرب والجامع المغرب، للونشريسي، (٢٦٦/٧).
(٦) إعلام الموقعين، لابن القيم (١١/٣).
(٧) قواعد الأحكام، للعز بن عبد السلام (١٨٩/٢).
(٨) أصول الفقه، للسرخسي (٢٨٠/٢).

«يحصلون بها على دفع الحاجات والضرورات»[١].

إلا أن من بين وسائل التبرعات التي تجسد هذا الأصل أكثر من غيرها هو الوقف، فقد جعله النبي ﷺ حسب الشيخ ولي الله الدهلوي: «لمصالح لا توجد في سائر الصدقات، فإن الإنسان ربما يصرف في سبيل الله مالاً كثيرًا، ثم يفنى، فيحتاج أولئك الفقراء تارةً أخرى، ويجيء أقوام آخرون من الفقراء فيبقَون محرومين، فلا أحسنَ ولا أنفع للعامة من أن يكون شيء حبسًا للفقراء وأبناء السبيل تصرف عليهم منافعه، ويبقى أصله على ملك الواقف»[٢].

> **من استقرى الأحكام الشرعية في الكتاب والسنة بأنواعها يرى أنَّ الغرض منها كلّها مراعاة الفضائل من الحق والبر والإحسان، واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود، والكذب والخيانة ... وغيرها**
>
> محمد رشيد رضا رحمه الله

ومن الواضح أن هذا الأصل - أي تحقيق الشريعة - لمصالح المحتاجين يشمل كل جزئيات الشريعة، ولا يقتصر على المجال التطوعي فقط. وممن أكَّد هذه المزية الشيخ محمد رشيد رضا قائلاً: «من استقرى الأحكام الشرعية في الكتاب والسنة بأنواعها من شخصية ومدنية وسياسية وحربية يرى أن الغرض منها كلها قاعدة مراعاة الفضائل فيها من الحق والبر والإحسان، واجتناب الرذائل من الظلم والغدر ونقض العهود، والكذب والخيانة والقسوة والغش والخداع، وأكل أموال الناس بالباطل، كالربا...»[٣].

وما أكثر النصوص التي حث فيها النبي ﷺ على قضاء حوائج الآخرين، وبيَّن لهم فضل ذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة)[٤]. قال الإمام النووي: «معنى نفَّسَ الكربةَ: أزالها. وفيه فضل قضاء حوائج المسلمين ونفعهم بما تيسر من علم أو مال أو معاونةٍ أو إشارة بمصلحة أو نصيحة وغير ذلك»[٥].

فلا شك أن من أهم الحوائج سرور وسعادة تدخلهما على نفس المسلم، من خلال مساعدته على التخلص من الفقر أو الجهل أو المرض، من خلال التعليم والتدريب، أو تقديم الرعاية الصحية، أو النصح والإرشاد، أو مساعدته في إيجاد فرصة عمل، أو تقديم قرض[٦]، وهذه من وسائل العمل التطوعي للتخلص من التخلف والفقر من جهة، وتحقيق التنمية من جهة أخرى.

المقصد الثالث: تعاون وتماسك المجتمع الإسلامي:

إن تحقيق التعاون والتماسك الاجتماعي مقصدٌ عظيمٌ من مقاصد الشريعة الإسلامية، وتحقيق هذا المقصد رهين بأمرين:

الأمر الأول: وهو ترسيخ قيم التعاون والتضامن، مثل: الإيثار والأخوة والجود والكرم والرفق، ولا سبيل لتحقيق مقصد التماسك الاجتماعي إلا بهذه الطريقة، ويعد العمل التطوعي تجسيدًا فعليًا لهذه القيم، وفي هذا السياق يشير الدكتور باحو مصطفى إلى أن مقاصد الشريعة الإسلامية في الناحية الاجتماعية: «الحفاظ على تماسك المجتمع وترابطه وترسيخ معاني الأخوة وغرس روح التعاون والإيثار بين أفراده والتواضع والجود والكرم والرفق والسخاء والورع والرفق والقناعة والمحبة، وتشجيع كفالة اليتيم والإحسان للأرملة والفقير والمسكين، وإكرام الضيف والجار ومساعدة الغريب وابن السبيل، ومحاربة كل ما يهدد التماسك الاجتماعي كالظلم والغيبة والنميمة والتحاسد والتباغض والاستهزاء بالآخرين، والحقد والخيانة والغش والغدر والكذب والتجسس وسوء الظن ونقض العهد والكبر وغيرها مما جاء الإسلام بمحاربته، إنه نظام اجتماعي فريد يحق لنا أن نفتخر به»[٧].

(١) القواعد في اختصار المقاصد، للعز بن عبد السلام (١١٩).
(٢) حجة الله البالغة، للشاه ولي الله الدهلوي (١٨٠/٢).
(٣) الوحي المحمدي، لمحمد رشيد رضا، ص (٢٠٧).
(٤) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).
(٥) شرح صحيح مسلم، للنووي (٢١/١٧).
(٦) العمل الخيري ودوره في التنمية الاقتصادية من منظور إسلامي «دراسة حالة: قطاع غزة»، لمحمد إبراهيم أبو عليان، ص (٦٠).
(٧) العلمانية والمذهب المالكي، لباحو مصطفى، ص (١٤٨).

الأمر الثاني: تجريد تلك القيم من حظوظ النفس حتى تكون صافيةً لا يعكِّر صفوها أي شيء. يقول الشيخ الطاهر بن عاشور: «ولتحقيق قصد الشريعة من جعل المواساة خلقًا للمسلمين جاءت الأوامر والنواهي بتجريد أنواع المواساة عن كل ما فيه حظ عاجل لنفس المواسِي (بصيغة اسم الفاعل) وكل ما فيه إضرار بالمواسَى (بصيغة اسم المفعول) وعن اتباع النفس لما واست به وتعلقها به فتنزيهها عن حظ نفس الباذل ثبت بالنهي عن طلب الأجر العاجل عن المعروف»[١].

عندما يتأتَّى الأمران السابقان يمكن أن نحقق مجتمعًا يصدق عليه التشبيه النبوي (إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا) وشبّك أصابعه[٢].

> **تعاضد المؤمنين بينهم كتشبيك الأصابع بعضها في بعض، فكما أن أصابع اليدين متعددة فهي ترجع إلى أصلٍ واحدٍ ورَجُلٍ واحد، فكذلك المؤمنون وإن تعدَّدت أشخاصهم فهم يرجعون إلى أصل واحد وتجمعهم أخوة النسب إلى آدمَ ونوحٍ وأُخوَّة الإيمان**
>
> ابن رجبٍ الحنبلي رحمه الله

يقول ابن رجب الحنبلي معلقًا على هذا الحديث: «وهذا التشبيك من النبي ﷺ في هذا الحديث كان لمصلحة وفائدة، لم يكن عبثًا، فإنه لما شبه شَدَّ المؤمنين بعضَهم بعضًا بالبنيان كان ذلك تشبيها بالقول، ثم أوضحه بالفعل فشبّك أصابعه بعضها في بعض؛ ليتأكد بذلك المثال الذي ضربه لهم بقوله، ويزداد بيانًا وظهورًا. ويفهم من تشبيكه: أن تعاضد المؤمنين بينهم كتشبيك الأصابع بعضها في بعض، فكما أن أصابع اليدين متعددة فهي ترجع إلى أصلٍ واحدٍ ورَجُلٍ واحد، فكذلك المؤمنون وإن تعددت أشخاصهم فهم يرجعون إلى أصل واحد وتجمعهم أخوة النسب إلى آدم ونوح وأخوة الإيمان»[٣].

وقد وصف النبي ﷺ أن من آثار هذه الأخوة والمحبة إخفاء مشاعر الأنانية والأثرة، فقال ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[٤]. وشبه الرسول ﷺ مجتمع المؤمنين في توادهم وتراحمهم كالجسد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. وقد جسد الرسول ﷺ هذه الأخوة بين المؤمنين من خلال مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار ليعلم الناس أن الأخوة ليست مجرد شعار، ولا عواطف ومجاملات وإنما هي أخوة حقيقية تصل في وقت الشدة والحاجة إلى اقتسام الثروة والقوة.

المقصد الرابع: بناء المجتمع وتنميته:

ليس المقصد من العمل الاجتماعي التطوعي سدُّ فراغ جائع أو ستر عورة عريان فحسب، ولكنه منهج شامل لبناء مجتمع أفضل. يقول الدكتور محمود غريب: «الصدقة في الإسلام ليست لُقَيمات تسد فراغ جائع ولا سترًا لعورة عريان. ولكنها منهج متكامل يمكن أن يسُدَّ حاجة كل إنسان»[٥].

ومن المهم أن هذا المنهج الذي يتحدث عنه الدكتور غريب لا يمكن أن يحقق مقصد التنمية إلا إذا استُمِدّ من الكتاب والسنة على هدي الصحابة والتابعين. إذ إنَّ أي استمداد من غير هذين المصدرين محكوم عليه بالفشل منذ الوهلة الأولى. يقول الدكتور المرسي: «لقد تعاملنا مع كل «الأيديولوجيات» والمذاهب السياسية الموجودة في العالم، مع ذلك فهي لم تنفع لا في تنظيم الجماهير، ولا في إصلاح الدولة، ولا في تطوير الاقتصاد، ونحن لدينا كل المقومات في القرآن الكريم والسنة المطهرة وهدي الصحابة والتابعين، والأمثلة الزاهية من العلماء والفقهاء على مختلف العصور، ولكن لا نتحرك لتعميم الإفادة من كل ذلك في مواجهة كوارث الواقع ومتغيراته، بل على العكس، نحن نزداد بعدًا عن سبل الهداية في القرآن والسنة والتراث الصالحة لكل زمان ومكان، ونلجأ إلى تطبيق تجارب الأجانب التي تفضي في النهاية إلى الضياع»[٦].

(١) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، للطاهر بن عاشور، ص (١٣٩).
(٢) أخرجه البخاري (٤٨١).
(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب الحنبلي (٣/٤١٩-٤٢٠).
(٤) أخرجه البخاري (١٣).
(٥) المال في القرآن، لمحمود محمد غريب، ص (٨٨).
(٦) من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي، لكمال الدين عبد الغني المرسي، ص (١٨٦).

وهذا لا يمنعنا من الاستفادة من التجارب العصرية في حدود ما يوافق شريعتنا، فالحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها، وهذه الاستفادة بهذه الصورة تطبيق عملي للأمر بالسير والاعتبار والتعلم والتفكر، وهي جزء من الهدي الإسلامي الأصيل.

إنَّ العمل الاجتماعي التطوعي اليوم لم يعد مقتصرًا على منح المساعدات المالية والعينية فحسب، بل هو حسب الدكتور القدومي تعدى إلى أن يكون عملاً منظمًا شاملاً يحتوي على مختلف الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية، وأصبحت هناك إدارات ومؤسسات متخصصة لجمع التبرعات وحفظ المعلومات عن المتبرعين وعناوينهم، كما أصبحت الجامعات في الدول المتقدمة تمنح الدرجات العلمية للدراسين في مجال إدارة العمل الخيري[١]. وبناء على هذا يعُدُّ الدكتور القدومي نظرة كثيرين إلى العمل التطوعي ومؤسساته لا تتعدى كونها نوعًا من «الاستجداء» وهذه النظرة لها انعكاساتها السلبية[٢]. بل إن جمع التبرعات في أذهان كثيرين هو فتح صندوق ومناشدة للتبرع ووضع النقود فيه ثم أخذه إلى حيث لا ندري![٣].

ولتخطي هذه النظرة السلبية ينبغي عدّ العمل التطوعي ركنًا أصيلاً في عملية التنمية والبناء. يقول الدكتور غانم: «ونحن نرى أن العمل الخيري الإسلامي ليس مرحلة أولية من مراحل تطور العمل الاجتماعي التطوعي المعني بالشأن العام، وإنما هو ركن أصيل في بناء المجتمع، وفي تمدينه وبناء تقدمه العلمي والمعرفي، كما أنه يتسع معناه لمختلف المراحل التي يشيرون إليها، وقد أثبتت التجربة التاريخية أن تطبيقاته تشمل مختلف مجالات الحياة بما في ذلك الأعمال الإغاثية، ولها أهميتها التي لا يجادل فيها أحد. والأعمال التنموية وأنشطة التأهيل والتمكين والدفاع عن الحقوق الإسلامية والدفاع عنها، وثمة العديد من الأدلة والبراهين التي تثبت صحة ما نذهب إليه»[٤].

وممن يؤكد الفكرة نفسها الدكتور فؤاد عبد الله حين جعل الوقف أحد أهم عناصر التنمية في قوله:

(١) أسس العمل الخيري وفنون تسويقه، لعيسى القدومي، ص (١١٦).
(٢) المصدر نفسه، ص (١٢٢).
(٣) المصدر نفسه، ص (١٨).
(٤) مقاصد الشريعة الإسلامية في العمل الخيري رؤية حضارية مقارنة، لإبراهيم غانم، ص (٤٣).

«يعتبر الوقف أحد عناصر التنمية الاجتماعية، فهو يقوم على عمليات تغيير اجتماعي تركز على البناء الاجتماعي ووظائفه بغرض إشباع الحاجات الاجتماعية للأفراد وتقديم الخدمات المناسبة لهم في جوانب التعليم والصحة والإسكان والتدريب المهني وتنمية المجتمعات المحلية؛ بحيث تنفذ من خلال توحيد الجهود الأهلية والحكومية»[١].

الوقف هو الحجر الأساس الذي قام عليه العمل الخيري في تاريخ حضارتنا، وهو الذي كان يمدُّ المؤسسات الاجتماعية بالموارد المالية التي تعينها على أداء رسالتها الإنسانية النبيلة. ولأجل هذه الخصائص استطاع الوقف أن يوفِّر مناخًا للاستقرار الاجتماعي والاقتصادي والسياسي

وبهذا المعنى الأخير فإنَّ الدور الذي أداه الوقف في التنمية الاجتماعية والاقتصادية في كثير من الدول الإسلامية دورٌ مؤثر كما هو الشأن للأحباس المغربية[٢]. وهو الحجر الأساس الذي قامت عليه كل المؤسسات الخيرية في تاريخ حضارتنا على حد تعبير الدكتور السباعي، وهو الذي كان يمد كل المؤسسات الاجتماعية بالموارد المالية التي تعينها على أداء رسالتها الإنسانية النبيلة[٣]. لأجل كل هذه الخصائص التي تميَّز بها الوقف استطاع أن يوفِّر مناخًا للاستقرار الاجتماعي والاقتصادي والسياسي[٤].

وقد بيّن الدكتور القدومي بعض أسس التنمية التي يحققها العمل الخيري وأهمها ما يلي[٥]:

- تحقيق المشاركة الشعبية التي تعد ركيزة من ركائز الرعاية والتنمية الاجتماعية.
- تنشيط الحركة الاجتماعية الذاتية بمضاعفة المؤسسات الخيرية والاجتماعية والتطوعية ورفع كفاءتها.
- غرس المفهوم الصحيح للعمل الخيري والطوعي الذي يتجاوز المفهوم الضيق الحالي ليشمل النهضة والتنمية وكل معاني البر والإحسان والعدل والرحمة وكل المعاني المرتبطة بتكريم الإنسان.
- إحياء قيم التكافل والتعاون ورعاية ذوي القربى وأهل الجوار وذوي الحاجة في المجتمع.
- ترسيخ العمل التضامني بين المواطنين والدولة والمجتمع، فالتنمية الاجتماعية جهد مشترك.
- مساعدة الفقراء وذوي الدخل المنخفض ومحاربة الفقر ودرء المخاطر الاجتماعية والأخلاقية المترتبة عليه ومحوها محوًا كاملاً.
- دعم ومساندة الفئات الخاصة في المجتمع من المسنين والمعاقين والأيتام وغيرهم.
- توسيع نطاق العمل الخيري والطوعي ليتجاوز نطاق المحلية إلى إطار الإقليمية والعالمية.

المقصد الخامس: تربية نفس الإنسان على الرحمة وحب الخير:

من مقاصد العمل التطوعي تربية نفس الإنسان على الحبِّ والرحمة والشفقة والحنان، والأخوَّة في الله، حتى إذا تمكَّنت هذه المشاعر اللطيفة من نفس الإنسان كانت أقرب إلى التعاون وأدنى إلى التكافل.

وقد تولى القرآن الكريم خدمة هذه المقاصد النفيسة في آيات كثيرة، منها: أمر الناس بالتقوى في سياق تذكيرهم بأصلهم المنحدر من نفس واحدة ومن زوجها، قال تعالى في سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وفي ظل الحبِّ والرحمة وتمكُّن التقوى من القلوب حرص القرآن الكريم على ترسيخ خُلُق الإيثار والتضحية بما هو عزيز على النفوس في سبيل إسعاد الآخرين، فلا بدَّ للتكافل من قوم يؤثرون على أنفسهم، ويضحُّون بالغالي والعزيز عليهم، فالمجتمع فيه الواجدون والمحرومون، وإذا

(١) إسهام الوقف في العمل الأهلي والتنمية الاجتماعي، الأمانة العامة للأوقاف، الكويت، ص (٤١).
(٢) ينظر: ندوة التجارب الوقفية لدول المغرب العربي، ص (١١).
(٣) ينظر: من روائع حضارتنا، لمصطفى السباعي، ص (١٩٨).
(٤) ينظر: الزكاة الأسس الشرعية والدور الإنمائي والتوزيعي، لمشهور نعمت عبد اللطيف، ص (٤١٠).
(٥) أسس العمل الخيري وفنون تسويقه، لعيسى القدومي، ص (٢٦-٢٨).

مقاصد العمل التطوعي في الإسلام

لم يؤثر الواجدون على أنفسهم، وإذا لم يضحوا بما يملكون؛ لم يقم التكافل، ولم يقم التعاون[١].

كما حرص القرآن الكريم على تطهير النفس الإنسانية من الرياء، حتى يكون العمل الخيري التطوعي خالصًا لوجه الله لا سمعة فيه ولا رياء، فقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]، وقال في سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٢]. ثم إنَّ الإسلام جاء بمفهوم واسع للإحسان الخيري التطوعي لا يقتصر على الأغنياء وحدهم، بل حتى الفقراء أمامهم مجال واسع للإسهام في التكافل، وطلب الآخرة والثواب.

وهكذا بين الرسول ﷺ بأن (كل معروف صدقة)[٢] وفي سياق بيانه لوجوه الخير وكثرتها قال ﷺ: (كل سُلامى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، قال: تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة، قال: والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة)[٣].

> **في ظل الحبِّ والرحمة وتمكُّن التقوى من القلوب حرص القرآن الكريم على ترسيخ خُلُق الإيثار والتضحية بما هو عزيز على النفوس في سبيل إسعاد الآخرين، فلا بدَّ للتكافل من قوم يؤثرون على أنفسهم، ويضحُّون بالغالي والعزيز عليهم، وبدونهم لا يقوم التكافل ولا التعاون**

الخلاصة:

يتضح مما سبق أن المقصد العام من الشريعة الإسلامية هو جلب المصالح ودرء المفاسد عن العباد، والعمل التطوعي باعتباره مبدأً إسلاميًا أصيلاً، يروم تحقيق هذه الغاية التي جاء من أجلها الشرع الحكيم، لما ينطوي عليه العمل التطوعي من مقاصد جزئية كثيرة.

(١) ينظر: دراسات إسلامية، لسيد قطب، ص (٥٣-٥٤).
(٢) أخرجه البخاري (٦٠٢١).
(٣) أخرجه مسلم (١٠٠٩).

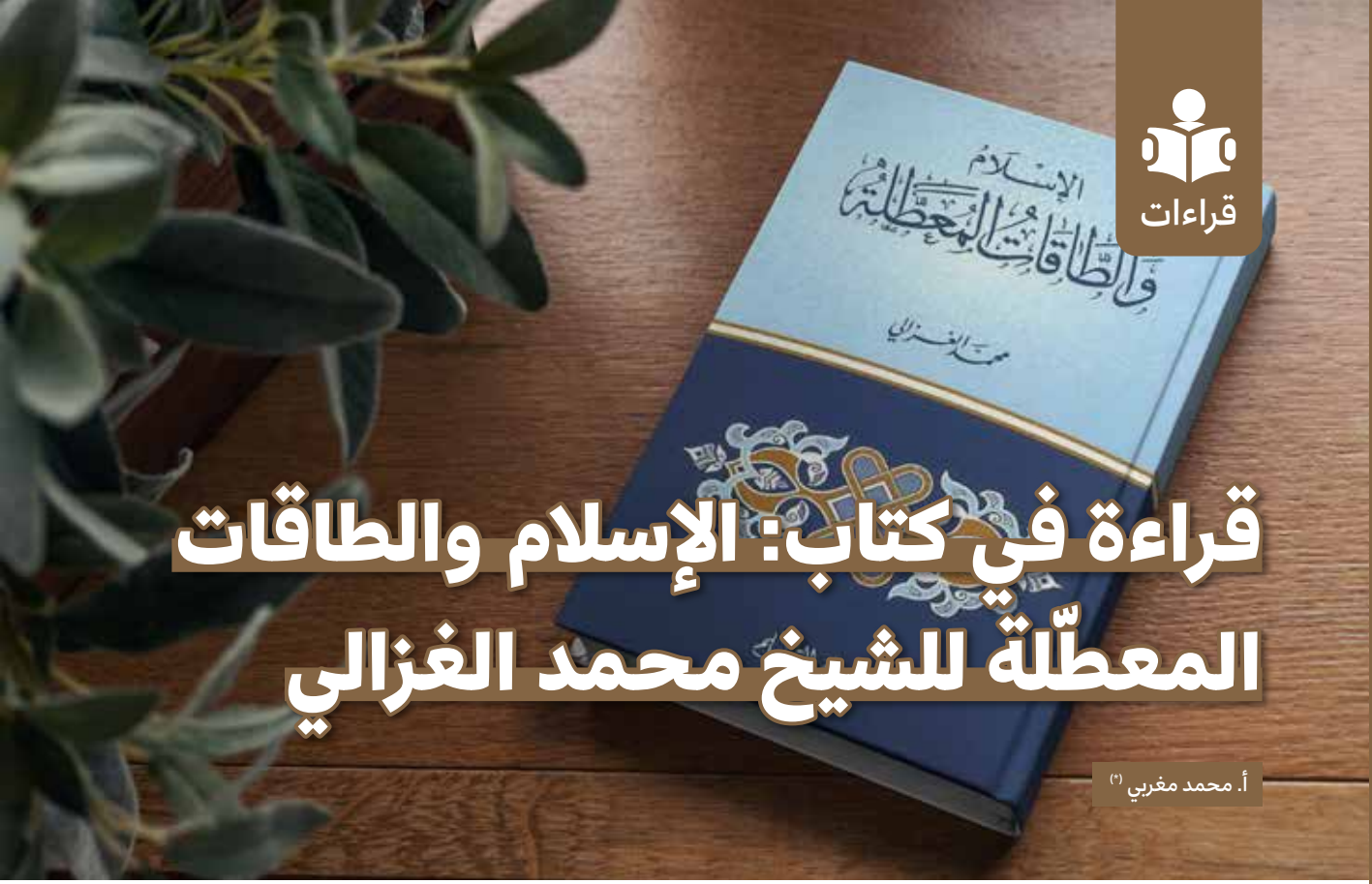

قراءة في كتاب: الإسلام والطاقات المعطّلة للشيخ محمد الغزالي

أ. محمد مغربي (*)

المسلمون هم الأمة الوحيدة التي بين يديها اليوم وحيٌ صادقٌ من الله، ومع ذلك فقد تقدمت الأمم وتراجعت أمتهم، وهذا يدعونا إلى دراسةِ واقعنا لرصدِ الفروقِ بيننا وبين رعيلنا الأول، والوقوفِ على أسباب التأخُّر المعاصر، وكيفية معالجةِ هذه الأسباب حتى تتمكَّن الأمة من النهوض من جديد، يتحدَّث الشيخ محمد الغزالي في هذا الكتاب حول هذه القضايا

التعريف بالكاتب:

يعد الشيخ محمد الغزالي أحد أهم دعاة الفكر الإسلامي في العصر الحديث، وتحمل كتبه غالبًا نزعة نقدية حادة ضد الاستبداد، والدعوة للتحرر في إطار المشروع الإسلامي.

ولد في محافظة البحيرة بمصر ١٣٣٥هـ-١٩١٧م ونشأ في أسرة متدينة، تخرج من كلية أصول الدين بالأزهر وعمل إمامًا وخطيبًا، ثم ترقى في وظائف الوعظ وتدريب الأئمة حتى أسندت إليه إدارة الدعوة والإرشاد، ثمَّ عُيِّن وكيلاً لوزارة الأوقاف في مصر عام ١٩٨٢م.

درّس في العديد من الجامعات، ونال العديد من الجوائز منها: جائزة الملك فيصل للعلوم الإسلامية ١٩٨٩م، وألف أكثر من خمسين كتابًا تتناول قضايا الأمة وأمراضها.

توفي عام ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م ودفن في مقبرة البقيع في المدينة المنورة، كما كان يتمنى رحمه الله[١].

لمحة عن الكتاب:

يتناول الكتاب أهم القضايا التي يجب أن تنشغل فيها الأمة للخروج من واقعها الحالي، ويضع يده على أسباب التباين بين واقع الأمة الإسلامية العريق في الماضي، وواقعها المتدني في الماضي القريب والحاضر، وذلك من خلال تسليط الضوء على محاور مهمة استثمرتها الأمة في الماضي وأهملتها في الحاضر والماضي القريب، وهذه المحاور

(*) مختص في إعداد محتوى وسائل التواصل الاجتماعي.

(١) ينظر: الشيخ محمد الغزالي: الموقع الفكري والمعارك الفكرية، للدكتور محمد عمارة.

هي ذاتها الطاقات المعطلة التي أثَّر تعطيلُها في تأخر نهوض الأمة.

يقع الكتاب في ١٧٥ صفحة من الحجم المتوسط، وينقسم إلى ثلاثة أبواب:

- الطاقات المعطّلة.
- أسباب تعطل طاقات الإسلام.
- أدوات تفعيل الطاقات.

من رام إصلاحَ حالِ المجتمعات الإسلامية فعليه أن يبدأ بتعليم الناس كيفيةَ استثمارِ طاقتهم، وإجادة فنِّ الحياة، أما إن بقيت تلك النفوس على حالها من فتورٍ وكسلٍ وإعراض فلن يَصلُح بها دين، ولن تصلح لها دنيا

تفجير الطاقات الإنسانية:

تعاني المجتمعات الإسلامية من فتورٍ شائع بين الأفراد والجماعات؛ فهم يستقبلون الحياة بصدودٍ وميلٍ عنها، بينما تعيش الشعوب الأخرى في همّةٍ ونشاطٍ وإنتاجٍ وشَغَفٍ بالحياة، وهذا أمرٌ خطيرُ العاقبة؛ فالدِّين لا يحملُه إلا الأحياء بمشاعرهم وأفكارهم. أما التأخُّر والجُمود والهوان فلا يجدُ أوعيةً له أفضلَ من النفوس المغلقة، والمواهب المطموسة. والمصلحون لا يكادون يجدون من يستجيبُ لهم لأنهم يصطدمون بتلك الطاقات المعطّلة.

فمن رام إصلاحَ حالِ المجتمعات الإسلامية فعليه أن يبدأ بتعليم الناس كيفيةَ استثمارِ طاقتهم، وإجادة فنِّ الحياة، أما إن بقيت تلك النفوس على حالها فلن يَصلُح بها دين، ولن تصلح لها دنيا.

القسم الأول: الطاقات المعطّلة:

لاحظ الشيخ كسلاً وفتورًا عند شباب المسلمين، إلى درجة عدم الرغبة في العمل وكسب الرزق مع توفر أسبابه.. فطرح تساؤلاً: هل الدين هو المسؤول؟

وناقش ذلك مُوضحًا أن الإسلام يُقيم أركان الإيمان على فهم الحياة بصدق، والتصرُّف فيها بعقلٍ وأمانة، والقيام برسالتها إلى آخر رمق، وأنَّ أقربَ ما يُصوِّر هذه الحقيقة قول رسول الله ﷺ: (إذا قامت على أحدكم القيامة وفي يده فسيلة فليغرسْها)[1]!! وهذا الأمر بغرس الخُضر الذي يخرُج منه النبات في تلك الآونة العصيبة له دلالةٌ حافلة؛ إنَّه أمرٌ بمواصلة أسباب الحياة، في الوقت الذي تُستحصد فيه الحياة.

فالإسلام ليس هو المسؤولَ عن الفتورِ في التعامل مع الحياةِ والزهدِ بالعمل والإنتاج؛ فهو يجعل صلاح الآخرة نتيجةً حتمية لصلاح الأولى، أي يجعل الجنة لأولي الأيدي والأبصار، لا لأولي العجز والحجاب، ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

إذًا فما السرُّ في تخلُّف المسلمين.. ودينُهم يدعوهم إلى العمل والإنجاز؟ إنَّ الكشفَ عن هذا السرِّ يتطلَّبُ إحصاءَ جملةٍ من الرواسبِ المادية والمعنوية التي تكوَّنت على مرِّ القرون، ويمكنُ تحديدُ أربعة مصادرَ تولَّد عنها هذا الإدبار المزري:

١. فساد عاطفة التديُّن تبعًا لانتشار تعاليم المتصوِّفة، وشيوع أفكارهم القائمة عن الحياة.
٢. انكماش القيمة الإنسانية للفرد في ظلِّ الاستبداد السياسي الطويل.
٣. انطفاء القوى العقلية، وتسلُّط الأوهام والخرافات على الحياة العامة.
٤. المروق الظاهر عن أغلب النصوص والقواعد الإسلامية.

القسم الثاني: أسباب تعطل الطاقات:

العلة الأولى: الكفر بالإنسان:

المتديِّنُ المنحرف يُسيء تصوُّر المَلَكات والشهوات الإنسانية، وينظر إليها نظرة ازدراء، وربما كان المقصود كسر الغرور الذي يَشيع بين بعض الناس، كفكفةً لشرور الكِبر والاستعلاء التي تُفسِدُ الأخلاق والعلاقات، وتهيئةً لعوامل التربية التي تستهدفُ تهذيب الإنسان.

إلا أنَّ الأمر انقلب مع المربين الأغرار، فهم لم يُفلحوا في إزالة الزوائد الضارَّة وحسب، بل اجتاحوا الأصلَ نفسه؛ عندما حاولوا قتل الغرور في إنسان مغرور، فبلغوا في الجَور حدًّا جعله يفقد الثقة بمًا عنده، فذهب الكِبر، وذهبت معه عزّة النفس، ثم ذهبت بعدها الشخصية الحرّة المستقلّة.

حتى تتمَّ رسالة الإنسان في الحياة.. لا بد من احترام ملكاته وإقرار شهواته، ولا بدَّ من إنماء

(١) أخرجه أحمد (١٢٩٠٢).

مواهبه العالية، وتركِ رغائبه الطبيعية تتناسب وفق مقتضيات الفطرة السليمة.

فالإسلام لا يقتل الغرائز الإنسانية؛ لأنَّه إن قَتَلها حكم على الحياةِ بالفناء السريع، ولكنه يُحوِّل انطلاقها الفوضوي إلى انسياب دقيق رقيق، والقيودُ التي يضعُهـا عليها ليست لإعاقة وظيفتها وإنَّما لضمان هذه الوظيفة، بإبعاد الشطط والغلط عنها.

ولو أنَّ الصالحين من المسلمين عرفوا منطق كتابهم في تقويم الإنسان وتقرير حظوظه من السيادة المادية والأدبية لانساحوا في أنحاء المشرق والمغرب يَنظرون ويَكتشفون كما فعل المجاهدون من رجالات القرن الأول. لكنَّهم حَقَروا أنفسهم وقعدوا في أوطانهم، وتضاءل العالَمُ كلُّه في أعينهم، فأصبح حركةً عقيمةً بين دُورهم ومساجدهم.

على حين انطلق الأوروبيُّون يخترقون القِفار ليَعْلَموا ما بعدها! ويركبون البحار ليُدركوا ما وراءها! كأنَّما هُم الذين كُلِّفوا من عند الله بالتمكُّن في أرضه، والسيطرةِ على خلقه!! والجديرُ بالذكر أنَّ القرآن الكريم ألحَّ على المسلمين أن يَسيحوا في الأرض وأن يَسيروا في البرِّ والبحر، ليَربو إيمانهم، وتتَّسع معارفهم، وتُصقَل تجاربهم، وتزيد حصيلة الحقائق التي لديهم عن الوجود والتاريخ.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]، وقال جلَّ في عُلاه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ [غافر: ٢١].

> **لو أنَّ الصالحين عرفوا منطق كتابهم في تقويم الإنسان وتقرير حظوظه من السيادة المَادية والأدبية لانساحوا في أنحاء المشرق والمغرب يَنظرون ويَكتشفون كما فعل المجاهدون من رجالات القرن الأول**

العلة الثانية: الاستبداد يشلُّ القُوى:

الاستبداد الذي ساد بلاد الإسلام في القُرون الأخيرة كان طرازًا مُنكرًا من الفوضى، انكمشت فيه الحريّات الطبيعية، وخارت القُوى المادية والأدبية، وسيطر على موازين الحياة العامة نفرٌ قَلَبوا الأُمور رأسًا على عَقِب، نشروا الفَزَع في القلوب، والوهن في العزائم!

والحكمُ الاستبداديُّ تهديمٌ للدين وتخريبٌ للدنيا، فهو بلاءٌ يُصيب الإيمانَ والعُمرانَ جميعًا؛ فلا سُوق الفضائل والآداب تنشط، ولا سُوق الزراعة والصناعة تروج.

إنَّ الجوَّ المليء بما يَصونُ الكرامات، ويُقدِّسُ الدماءَ والأموالَ والأعراضَ هو الجوُّ الذي يصنعه الإسلام للناس كافة، وهو -بداهةً- الجوُّ الذي يُحسنون فيه العملَ والإنتاج؛ فحيث تسودُ الطُّمأنينة ويختفي الرُّعب، ينصرف العامّة إلى تثمير أموالهم وتكثير ثرواتهم، لأنهم واثقون أن حصاد ما يَغرسون لهم ولذراريهم، فهم غير مدَّخرين وُسعًا في العملِ والإنتاج.

يجبُ أن نَعلَم أن الناسَ يتهيَّؤون للعمل العظيم، ويتَّجهون إليه بأفكار رتيبة مستريحة، حين يكون الشعور بالأمن مُستوليًا على أقطار أنفسهم. أمّا حيث تستخفي الذئابُ الحاكمة وراء جُدران الدواوين، وتنقضُّ متى شاءت على أقرب فريسة لها، فهيهات هيهات أن يزدهر إنتاج، أو يستقيم سعي.

العلة الثالثة: أثر الثقافات الرديئة:

حقيقٌ بنا أن نبحثَ في مصادر المعرفة التي تُوجِّهُنا، وأن نتدبَّر فِعلَها في مشاعرنا وأفكارنا، فما أكثر الأوهام التي تُسيِّر الناس، وتجعلُهم يَنشَطون إلى سرابٍ خادع، أو يَرعَبون من خيالٍ مُختلق.

إنَّنا أحوجُ الأُمم إلى غربلة الأحكام والعادات والموروثات التي تشيع بيننا، ومقاضاتها إلى اليقين من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ.

لقد نهانا الله عن اتِّباع الظنون العائمة، أو احترام الخُرافات القائمة، وأفهمَنا أننا مسؤولون عن حواسِّنا حتى لا يفتنها عن الحقِّ خِداع، ولا يجرَّها إلى الباطل تقليد، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال في تفكير أهل الكتاب: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ [النساء: ١٥٧]، وقال في تفكير عبدة الأوثان: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

ونحن نريد أن يكون الغذاء الروحيُّ والعقليُّ للأمة الإسلامية نابعًا من اليقين، بعيدًا عن

الأباطيل، مستقيمًا مع مناهج الاستدلال العلميِّ التي يحترمها أولو الألباب.

ومن حقِّنا أن ننظر: ما الذي يُكوِّنُ هذه العقائد ويُنشئ تلك الأفكار؟

١. **القرآن:** هو كتابٌ مبارك، خَلَق من الهَباء أُمَّةً ضخمة، ولولا ما شرع القرآنُ من طُرُق النظر الصحيح والعمل الطيب لظلَّ العالَم يتدحرجُ مع خُرافات الرومان والفرس واليونان حتى يبلُغ الحضيض.

أمَّا مسلمو اليوم .. فصِلتُهم بالقرآن لا تَغسل من نفوسهم دَرَنًا، بَلْهَ أن يغسلوا هم أدران الآخرين؛ فقد اتَّخذوا القرآن مهجورًا، ولم ينهلوا من تعاليمه، بل عكفوا بكل سذاجة على تلاوة ألفاظه فقط دون تدبّر. لذلك نرى الشرائع القرآنية أغلبُها مُعطّل، بل إنَّ الجيل الذي أنتجه الاستعمار يَعدُّ تطبيقَها ضربًا من التخلُّف والرجعية.

٢. **السنّة:** إنَّ الدروس النبوية والتعاليم المُستخلصة من سيرة وأحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام لم تُستثمر، والتعامُل معها على أنَّها قصصٌ وأحداثٌ مُنفصلة دون تكوين صورةٍ كاملة يُعدُّ تعطيلاً لدَورها، بل إنَّ حركاتِ المصطفى وسكناتِه وسلوكَه وأقوالَه منهاجٌ كاملٌ مُعدٌّ للاتِّباع؛ فإنَّ في السنّة كنوزًا من الحكمة والمعرفة، وزادًا من الأدب والتقوى، ولكنَّ استخراجَ هذا الخير يحتاجُ إلى اليد الصانعة والعين البصيرة.

٣. **الفقه:** الفقه الإسلامي محيطٌ بالحياة الإنسانية كُلِّها، وقوانينُه الضابطة للأعمال تناولت الفردَ في خاصّة نفسه، وتناولت الدولةَ في أعمِّ أمورها، حتى يكون إشرافُ الدين على الإنسان مُحكَمًا لا ثغرة فيه.

والفقه يطلق الأحكام مشروحةً مُبيَّنةً مع مقاصدها، ويستقي مادَّته الخام من الكتاب والسنَّة ليُعطي تفسيرًا وافيًا لأدقِّ تفاصيل الأحكام في حياة الإنسان والمجتمع. وهو صورةٌ مشرقةٌ للحرية الذهنية التي تقوم على الاجتهاد في حلِّ القضايا التي تحتاج نصوصُها إلى شرح وتأويل لمن هو أهل لها من حَمَلة القرآن والسنَّة.

لكنْ تعطَّلَ ذلك بسببِ التعصُّب المذهبيّ، وإغلاقِ باب الاجتهاد لزمنٍ طويل، فاستورد المسلمون الأنظمة والقوانين من الأمم الأخرى لتطبيقها في حياتنا.

٤. **العقائد:** إنَّ صفو العقائد الإسلامية المحدِّدة لأركان الإيمان قد تعكّر عندما دخل الفكرُ الأجنبيُّ إلى مفاصل حياة المسلمين، ولولا متانةُ الجانب العقليِّ في الإسلام لضاعت مَوروثاتُه بسبب الاختلاط مع الفلسفات الأجنبية.

الإسلامُ قويٌّ منيعٌ لا يُغلب في ميادين الفكرِ الحُرّ، وعقائدُهُ راسخةٌ تمنع اهتزازه أو اضطرابه، لكن عندما يتشرّب المسلمون أفكارًا مُبهَمَةً تُصوِّر الإيمان بشكلٍ خاطئ، وتُقدِّمه بفهمٍ قاصر، ستختفي العقائد من مفاصل حياة الأمّة.

أما اليوم فإنَّ دراسةَ العقيدة قد تحوَّلت إلى مُجرَّد معلوماتٍ وجِدالاتٍ ونقاشاتٍ ضعيفةٍ خاليةٍ من الروح الدافعة لبناء الأمم.

الإسلامُ قويٌّ منيعٌ لا يُغلب في ميادين الفكرِ الحُرّ، وعقائدُهُ راسخةٌ تمنع اهتزازه أو اضطرابه، لكن عندما يتشرّب المسلمون أفكارًا مُبهَمَةً تُصوِّر الإيمان بشكلٍ خاطئ، وتُقدِّمه بفهمٍ قاصر، ستختفي العقائد من مفاصل حياة الأمة

العلة الرابعة: التخلف في الكشوف المادية:

كان حريًّا بالمسلمين أن يكونوا أسبقَ أهلِ الأرضِ إلى التمرُّس بعلوم المادّة والبراعة في فهمها والنفاذ إلى أسرار الكون من خلالها؛ ذلك أنَّ القرآن هو الكتاب الفذُّ في العالم الذي يُلحُّ على قُرَّائه أن يُفكِّروا ويعقلوا وينقُلوا أنظارهم بين فجاج الأرض وآفاق السماء. ولأمورٍ كثيرة لم يَستقِم تاريخُنا على هذا المنهج، فقد ضلَّله الاشتغال بالفلسفات الدخيلة، فاستهلك قُواه في بحوثٍ ما وراء المادّة، وهو إنما أُمرَ بالبحث في المادة لا فيما وراءها!

المرأة في المجتمع الإسلامي:

تعرَّضت المرأةُ للتهميش كثيرًا في العصر الحديث، وسُلبت حُريّتَها مع أنَّ الإسلام حرَّرها وأعلى شأنها. غير أنَّ حرية المرأة في الإسلام لا تُشابه الحريّة الزائفة في المجتمعات الأوروبية التي أدَّت إلى الانحلال؛ فالمرأة في الإسلام حُرةٌ عالمةٌ عاملةٌ أديبةٌ راعيةٌ في بيتها مجاهدةٌ حتى بالسلاح، ولكنها غير مُنحلَّةٍ أو قاصرةٍ مبتذلة. لذلك أدّى تهميش المرأة

واقتصار دورها على الجانب الشهواني، إلى تعطيل إحدى أهم طاقات الأمة.

أعراضٌ عامة:

بعضُ العلل النفسية والأمراض المجتمعية التي تترك آثارًا سلبيةً وتُعطّل طاقات الأمة، وأهمها:

❋ الأمل الطائش:

يَتوهَّم بعض المسلمين أنَّ صدق الوحي الذي انفردوا به كافٍ في ترجيح كفَّتهم، وأنَّهم أفضل الأمم، ويجبُ أن يثبُت لهم هذا الفضل مهما ساءت أحوالهم ورسبت أفعالهم! وهذا أقرب إلى الغرور الفارغ. إنَّ هذا المنطق جعل المسلمين يستهينون بواجباتهم، ويقصّرون بمهمَّتهم المتمثّلة في إعمار الأرض وإصلاحها.

❋ عدم الإخلاص للرسالة:

نحن أمّةٌ ذات رسالة! سمَونا بها حينًا من الدهر، وقد كان إخلاصُنا لرسالتنا قديمًا مصدرَ عاطفة ملتهبة، وفكرٍ يقظٍ، وإنتاجٍ كثير، وجهادٍ موصول، وتضحيةٍ نفيسة. ثم بدأت هذه الرسالة تضمحلُّ في نفوسنا، وتَبعها وهنٌ في الروابط العامة التي تحشُدُ قوى الأفراد لخدمتها. وذُبولُ هذه الرسالة الجامعة كانطفاء الأمل في نفس الإنسان؛ لا يجرُّ وراءه إلا الانكسار والقنوط والاستكانة.

❋ الغشّ العام:

تفشي الغش دليلٌ على انحطاط الأمم، وهو يتجاوزُ الخداع والاحتيال في إخفاء عيوب البضاعة، بل يشملُ كلَّ عملٍ لا يبلغ رُتبة الكمال إن كان القائم عليه مقتدرًا على إنجازه بصورة كاملة.

❋ عدم التعاون:

الأخوَّة دعامةُ بناء المجتمع المسلم، وهي التي تخلِّص الإنسان من داء إيثار الذات وعدم الاكتراث بحال الآخَر، ومكانةُ الجار في الإسلام خيرُ شاهدٍ ودليل. إنَّ ترك التعاوُن من الغباء؛ لأنَّه يُهدِر خيرًا عظيمًا، وهو أيضًا من سوء الخلق؛ لأنَّه منافٍ للطبع الاجتماعي للإنسان.

❋ الاختلاف:

الاختلافُ في الآراء والمذاهب والأهداف أمرٌ إيجابيٌّ يُساعد على التفكّر والاجتهاد وإعمال العقل وتنوُّع العمل والمسالك، لكنَّ الخلاف المخيف هو ذاك الذي يغذّيه هوى النفس وتُحرِّضه الأنانية، كالصراع على السُّلطة والمكاسب، وهو الداءُ الخطير الذي يُفتِّت الأمَّة، ويُهدر على مذبحه دماءَها ويكرّس العداواتِ بين أبنائها.

> **الإسلام أساسُ حياة الأمة وسرُّ قوَّتها وضمانُ بقائها، وإنَّ صلاحَها ونُهوضَها يكون بالعودة إليه، من خلال المنهج العلمي الدقيق الذي تُقدِّمُه تعاليم الإسلام وتشريعاته وكأنَّها معالمُ طريقٍ واضحةٌ توصل إلى نهاية صحيحة في الدُّنيا والآخرة**

القسم الثالث: وسائل تفعيل الطاقات:

الإسلام أساسُ حياة الأمة وسرُّ قوَّتها وضمانُ بقائها، وإنَّ صلاحها ونُهوضَها يكون بالعودة إليه، من خلال المنهج العلمي الدقيق الذي تُقدِّمُه تعاليم الإسلام وتشريعاته وكأنَّها معالمُ طريقٍ واضحةٌ توصل إلى نهاية صحيحة في الدنيا والآخرة.

على ذلك نصل إلى نتيجةٍ واقعيةٍ مفادُها أن الإسلام دينُ المستقبل، دينُ العلم والعمل، دينُ العدالة التي فشل بتحقيقها النظامان الشيوعي والرأسمالي فقاما بنشر أفكارهما غصبًا من خلال استعمار البلدان والشعوب بالقوة.

المبادئ الأساسية للنظام الإسلامي ومقوماته العامة:

ثمَة طرحٌ منهجيٌّ يقدِّم دراسةً دقيقةً وعمليةً للنظام الإسلاميِّ بعيدًا عن أدوات الاستعمار الرأسمالي والشيوعي الذي حاول أن يسيطر على العالم بالقوة السياسية والعسكرية والاقتصادية، بل جيّش لهذا الهدف الوسائل الإعلامية التي تُغلِّفُ الاستعباد والاضطهاد بالشعارات البرّاقة. هذا النظام الإسلامي المنشود يجب أن يُحدَّد بأطر دقيقةٍ تعصمُه من الفشل أو الشَّطط، وهذه الأُطُر هي:

أ: الإطار السياسي:

يرتكز على الشريعة الإسلامية وضرورة تطبيقها عن طريق الشورى التي تقيِّدُ فردية الحاكم، فلكُلِّ فردٍ حقٌّ في المشاركة إذا توفرت فيه الشروط التي تُقرُّها الشريعة. وأساسه قيمة العدالة؛ إذ من الضرورة إخضاعُ الجميع لأحكام الشرع دون استثناء، فالناس سواسية، ومن حقِّهم أيضًا المشاركةُ في وضع الحلول وتصحيح الأخطاء. أما

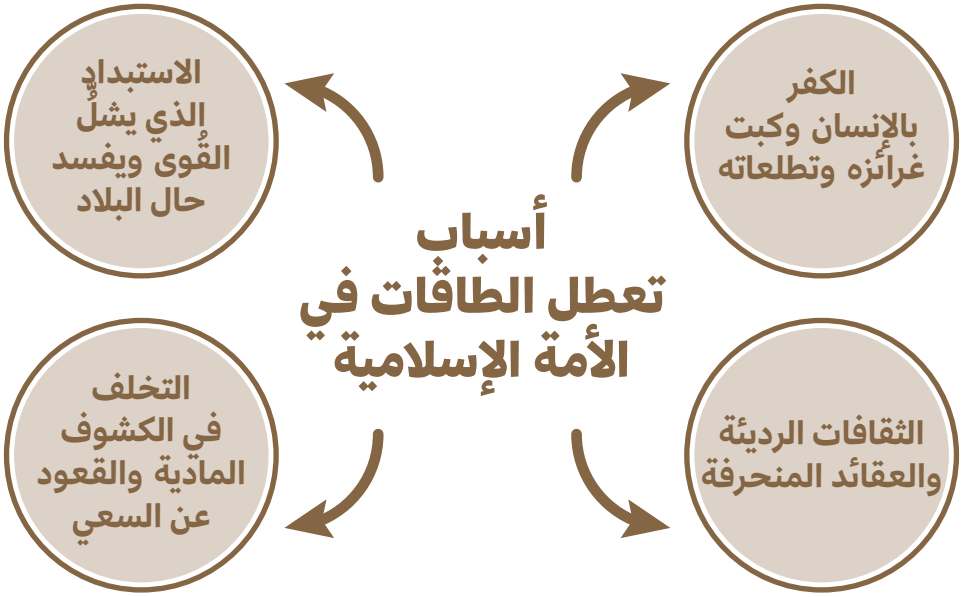

حقوق الأقليات غير المسلمة فهي مُصانةٌ في النظام الإسلامي، ولهم الحرية في ممارسة شعائرهم.

ب: الإطار الاقتصادي:

العدالة التي نظَّمت الإطار السياسي ستكون أيضًا ناظمةً للإطار الاقتصادي بُغيةَ الوصول إلى نظامٍ عالميٍّ يُحرِّم الاستغلالَ ويحترم العمل المشروع، ويحمي المكتسبات والأملاك.

النظام الاقتصادي الإسلامي يدعو إلى استثمار الثرواتِ بأقصى حَدٍّ، ويحارب الكنز والتبديد ويُحرِّم الربا والمقامرة. تضمن السلطة أيضًا حُصول كُلِّ من يعملُ على الأجر العادل دون تمييز عرقيٍّ أو ديني. التكافلُ والتآخي حاضِرٌ أيضًا في النظام الاقتصادي الإسلامي من خلال حقِّ الزكاة وتوزيع الصدقات وتطبيق الشريعة في المواريث.

ج: الإطار التربوي:

ثمة مبادئ أساسية لهذا الإطار تنبثق من أهمِّية التعليم والتربية في الإسلام وفي الحياة الإنسانية بشكلٍ عام، وتتلخّص هذه المبادئ في:

- وجوب نشر المعارف لكلِّ الأفراد وتوفير السبل لاكتسابها، ولزوم تكريس مكارم الأخلاق بجانب المعارف.
- ضرورة التخلُّص من ثنائية المناهج (العلماني – الديني) عبر توحيد المنهج التعليمي، فهذه الثنائية تُحرِم التعليم جدواه المثلى.

> **لا بدَّ من نشر الوعي الاجتماعي القائم على التعاون والتآخي والتكافل، وصيانة كرامة الفرد، وتدعيم بناء المجتمع ابتداءً من الأسرة حتى أكبر التكوينات المجتمعية، مع ضرورة الحدِّ من التواكُل، وترسيخ الاعتماد على الذات**

د: الإطار الاجتماعي:

لا بدَّ من نشر الوعي الاجتماعي القائم على التعاون والتآخي والتكافل، وصيانة كرامة الفرد، وتدعيم بناء المجتمع ابتداءً من الأسرة حتى أكبر التكوينات المجتمعية. إنَّ النظام الإسلامي يكفُلُ الحقوق الاجتماعية للأفراد كافَّة؛ لا سيما الضعفاء من أطفال وشيوخ ونساء، مع ضرورة الحدِّ من التواكُل، وترسيخ الاعتماد على الذات والتعاون بين الناس.

ه: الإطار العسكري:

لدينا عدَّةُ خطواتٍ ضروريةٍ لهذا الإطار على ضوء الأمر الإلهي ﴿وَأَعِدُّوا﴾، فالإسلام دينُ عدلٍ وسلامٍ ومعاملةٍ بالمثل، ولكنَّه بنفس الوقت دينُ دفاعٍ عن حريةِ العقيدة والكرامة.

هذه الخطوات مختصرةٌ في رفع كفاءة القدرات الدفاعية مع مراعاة السعي للاكتفاء الذاتي والتعاون بين كل بلدان الأمة الإسلامية للوصول إلى صيغة دفاع مشترك.

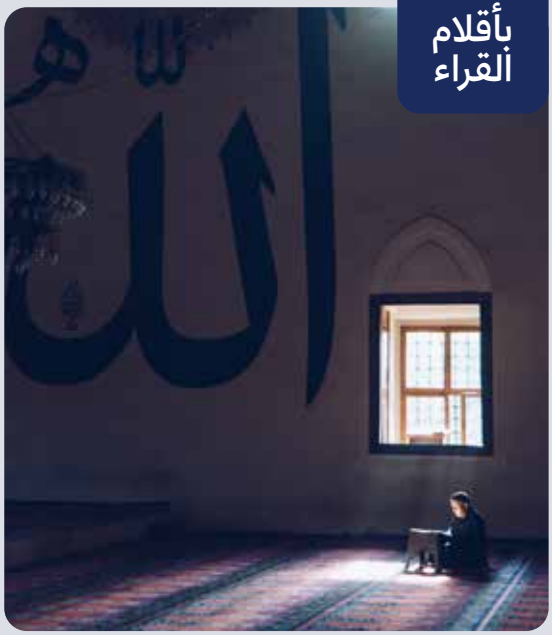

فُيوضُ الرحمة ومشاعرُ الرَّهبة

أ. جهاد خيتي

جاء في حديثِ آخرِ أهلِ الجنّة خروجًا من النّار: أنّه بعد أن يَخْرُجَ (تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ... فَيَقُولُ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: يَا ابْنَ آدَمَ، لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا)، لكنه ينقضُ العهدَ عندما يرى شجرةً أكبر، ثم عندما يسمع كلام أهل الجنة، حتى يسألَ اللهَ دخولها، (وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ)!

بقدر ما في هذه الكلمة من فيوض الرحمة؛ حتى إنّها لتفتح أبواب الرجاء على مصراعيها؛ إلا أنّها تُوقع في النفسِ الرهبةَ من نقض عهود الله التي سنُسأل عنها، بل الرهبةَ من كلّ معصية يُستحقُّ بها الوعيد ويُرجى لها الإعذار مهما كانت صغيرة، لتمتدَّ الرهبة إلى كلّ ما يتعلّق بالتعامل مع الله سبحانه؛ وتتفتح العين على الهنات التي لا يُلقي لها الإنسان بالًا، كمشاعر اليأس التي تعتريه، أو استبطاء إجابة الدعاء، أو سوء فهم حكمة الله وقَدَرِه في بعض الأحوال.

(وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ) مفتاحٌ من مفاتيح الخشيةِ والرجاءِ يَحسُنُ التوقّف عندها طويلًا، والإبحار في آفاقها.

جبر الخواطر

أ. تسنيم خليل

خلقٌ رفيعٌ وخصلة عظيمةٌ، أعلى الله منزلة صاحبه ورفع من شأنه، لذا كان ثوابُه أن يكافئه بجبر خاطره ويكفيه شرَّ المخاطر، فالجزاء من جنس العمل، (والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه) مسلم.

يستهين الناس بهذا الخلق ويغفلون عنه، مع أنَّ أصحاب القلوب المكسورة كثيرون حولنا، وجبر الخاطر لا يحتاج لأكثر من كلمةٍ أو دعوةٍ أو موعظةٍ، وربما لابتسامة أو مساعدة أو هدية أو مسحة على الرأس، فتفقّدوا من حولكم واجبروا خواطرهم.

كان أجمل مواقف جبر الخواطر ما قالته أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها للنبي صلى الله عليه وسلم يوم نزول الوحي: (كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم وتحمل الكَل وتكسب المعدوم وتُقري الضيف وتُعين على نوائب الحق) فجبرت خاطره وطمأنته، وذكّرته بجبره لخواطر الآخرين.

وقديمًا قالوا: من سار بين الناس جابرًا للخواطر أدركه لطف الله في جوف المخاطر، وممّا يُعطيه جمالًا أنَّه مأخوذٌ من اسم الله (الجبّار)؛ فالله يجبر الضعيف بالغنى والقوة، ويجبر الكسير بالسلامة، ويجبر المنكسرة قلوبهم بإزالة كسرها، وإحلال الفرج والطمأنينة فيها.

التفكك الأُسَري

أ. ريّان هبطو

التفكك الأسري معضلة وظاهرة اجتماعية مؤلمة ومدمرة، قد تدمّر كلًا من الرجل والمرأة نفسيًا ومعنوياً ولا سيما المرأة فهي أكثر عاطفة من الرجل، ومع ذلك فهو ليس نهاية المطاف، وعلينا أن نعي أنه قَدَر وليس فشلًا، وأنه نصيب وليس سوء حظ!

ثقي جيدًا أختي أن استمرارك في واقع يستنزف طاقتك وراحتك وسلامك النفسي ليس نجاحًا أبدًا، ليس نجاحا أن تستمري في بيئة لا تُلائم مستوى تديُّنك وأخلاقك وحسن تربيتك، بل نجاحك يكمن في انتصارك على ظروفك وتجاوزك للعقبات السلبية بأنواعها.

لا أقصد التحريض هنا، فلا شكَّ أن الصبر الذي يؤدي إلى تحسُّن الحال هو الأفضل، فأنتِ الزوجة الحنون الودود، لكنّ حديثي هنا موجّه لمن اضطرَّت إلى الانفصال لاستحالة المواصلة، ثم لاقت بعد ذلك من الدمار النفسي والمعنوي ما شاء الله لها أن تلاقي.

صعبة تلك الثقافة التي تواجهها المرأة المطلَّقة في المجتمع، فهي ضغوط ثقيلة من جهة، ونظرة انتقاص من جهة أخرى، والوقوف عندها كثيرًا قد يورث نتائج لا تحمد عقباها.

تجاهلي هذه الضغوط وامضي ولا تسأمي ولا تقنطي، فقدوتك رقية وأمُّ كلثوم.

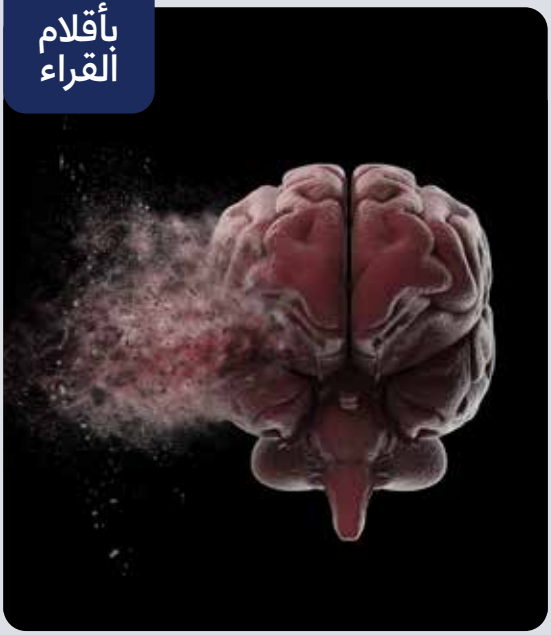

الإنسان بين طنين الإدمان ورنين الجنان

أ. محمد منار

حرب ضروس ونار موقدة بين النُّهَى والفرس الجامح المنبعث من صميم الإنسان، الذي يستجذبه حيث شرد وندَّ في متاهات الدروب الناعمة نعومة المروة الملساء، في داخله المقارع ولا يسمع في لُبِّه إلا صليل السيوف.. وبين فجاج إرادات الأنا ومثبطات النهوض.

يسارع ويسارع ثم يقاوم ذاك الشبح الذي استبطنه فخالط دمه ولحمه وغلَّف وكسى قلبه وبطش بأطرافه مكانه، ثم أفضى إلى الأمخاخ والأصماخ فلا يسعه إلا الخنوع لإملاءاته القاتمة والشريرة، التي تدفعه إلى أرذل الأفعال وأشنع الأقوال، يقول هذا المسكين بلسان حاله ووجدانه كفى من هذا كفى إني لا أرييييد!! ومن الجهة الأخرى لسان إدمانه يقول خلاف هذا، عن غير وعي ولا إدراك: بل أرييييد نعم رغمًا عني أريد.

فتنتصر النفس الخبيثة على همس وصوت الصلاح وعلى موعظات الفلاح، فيغدو تائهًا مسكينًا بين الجنوح للإقدام وبين دلائل الإحجام، لا يدري يسير يمينًا أم شمالًا؟ أيهتمُّ أم يهمل؟ أصاب إرادته التشرذم والانفصام، وبات لا يدري أيستمع إلى باطل تمليه النفس؟ أم إلى الحق الذي جاء به صفوة ونخبة الرعيل.

يُخرِجُ الحيَّ من المَيِّت

د.خير الله طالب

تفحَّص بيدك حبّة قمح بصلابتها، وتأمَّل بعينيك نواة التمر بقسوتها، وكيف تَخرُجُ منها الخُضرة والثمرة، ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ [الأنعام: ٩٥]؛ يُخرج السنبلَ الحيّ من الحبّ الميت، والشجرَ الحيّ من النوى الميت، والمؤمنَ من الكافر[١].

قدرة الله بالغة، لكنَّ اليقينَ بها قد يخفُت في النفس فما يُسعف صاحبه في مواقف اليأس.

يُبهرُك فاقد أطرافٍ متفائل، وحاضنةُ معاقٍ متفانية، ومهاجِرٌ يجاهد، وفقيرٌ يتصدَّق، ومعدومٌ يبتسم. وإنَّك لَتعجب لعاكفٍ على التعليم عشراتِ السنين رغم البؤس والتشريد، ولله درُّ غنيٍّ مِنْفاقٍ رغم المخاطر والإخفاق، وناشطٍ في الشأن العامِّ يكابد باستقلالية ونزاهة، وإعلاميٍّ يدفع ضريبة الحرّية والمصداقية. ولا تبتعدْ عن أمل نبيِّ الله يعقوب بالفرج مع طول المدَّة وانقطاع الأخبار، ولا عن مصابرةِ يوسف دون الإغراء والكيد العظيم، ثم عفوهما عليهما السلام عن ظُلم الأقربين.

كلُّ هؤلاء لولا الأملُ بالله لانقطع بهم الطريق، ولو علَّقوا آمالَهم بالبشر لباؤوا بالفشل، ولو غاب عن حسّهم عيش الآخرة لتنغّصوا بعيش العاجلة، ولو نظروا إلى المفقود لما استمتعوا بموجود، ولو اعتمدوا على إمكاناتهم لأحسّوا بالعدم، ولو ترقبوا سرعة النتائج لأُحبِطوا.

لقد وجدوا اليُسر في طيّات العُسر المولّد للدافعية والمحفِّز على الإبداع، وعاينوا حقيقة (ومن يتصبّر يصبره الله)[٢]، وبادروا بواجباتهم رغم مشقّة العيش، بخلاف غيرهم ممن أَلِف النعيم وسُهولةَ الحياة، فربما عَبَد الله على حرف، فلما مسّه شيء من الشظف أفرغ طاقته في جلْد الناس والظروف وترقُّب المفاجآت، وسرعان ما نفِدَ صبرُه متذمرًا شاكيًا، ولسان حاله: (دعوتُ فلم يُستجب لي)، فعمِيَ عن أسباب اليُسر وأبواب الفرج.

إنَّ النفسية المأزومة، وتضخُّم الذات، والجهلَ بالله وبسننه وقوانينه في خلقه، وأوهام القفزات، والشعور بالاستحقاق السريع، وإعلان التعب، وانتظار الراحة العاجلة.. لا يجلب إلا الضدّ واليأس. وإذا كان الله سبحانه لم يأذن في ذرّة من اليأس والقنوط، فقد أَشرَعَ أبوابَ الفرج واليُسر، وأقام الحُجَّة بتلك النماذج.

تتحتَّم الحاجة لتعلُّم (التفكير الإيجابي) الذي يرى البياض في السواد ولا يشغله سوادٌ عن بياض، والذي يدلّ على الرضى الجالب للرضى. ومن الجيد الاطِّلاع على قصة ابتكار (العلاج بالمعنى)[٣]. ولن نجد لأجيالنا ولأنفسنا مسعفًا بالأمل مثل العلم بالله وعظمته وحسن تدبيره وحكمته، ومثل بناء أحلامهم في الجنة، واطّلاعهم على تفاصيل نعيمها بكلام المفسِّرين وشرّاح الحديث، وإلا فإنَّ جفاف الحياة يهدّ الأشجار الباسقة.

ومن لم يقنع فإنَّ يأسَه لا يصنع شيئًا غير الموت. زار النبي ﷺ مريضًا، فقال له: (لا بأسَ طَهور إن شاء الله)، قال: بل حمى تفور، على شيخ كبير، تُزيره القبور، فمات[٤].

نهضة الشعوب وتنمية البلاد رحلةٌ شاقَّةٌ زادُها الأمل، ومركبُها التفاؤل، تنتقل من عبودية إلى عبودية بعلم وبصيرة، وقد تبيتُ في التيه سنواتٍ في مراحل المَسير، ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝٧ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٥-٨]. وعلى طريق الأمل تجدي المثابرة؛ فدوامُ الصلاة مع الأمل يأتي بالخشوع، ودوامُ التلاوة مع محاولة الفهم يأتي بالدموع، ومَن أكثر الطَّرقَ أوشك أن يُفتح له، وحين تستبطئ مصالحَك أو رقّة قلبك في مواسم الخير فاعلم ﴿أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٧].

سيحتفظ المتفائلون الصابرون وحدهم بمضمار السباق، وما وثق الناس بقائدٍ لا يرى لهم المستقبل المشرق مهما حلَك الظلام.

لا نهوضَ مع اليأس، ولا حضارةَ مع القنوط، ولا مجدَ مع انقطاع الأمل.

(١) ينظر: تفسير الطبري (٥٥٢/١١)، و(٨٥/٢٠).
(٢) أخرجه البخاري (١٤٦٩).
(٣) طوّرها طبيب النفس والأعصاب (فيكتور فرانكل) في سجنه، وتستخدمها للعلاج مراكز عدّة في العالم.
(٤) صحيح البخاري (٣٦١٦)، وفتح الباري (٦٢٥/٦).

رواء

ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية

ضمن المحاور الأساسية للمجلة

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

كما ترحب المجلة بخواطركم القصيرة ضمن زاوية (بأقلام القراء)

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

أكاديمية
تأصيل الوعي

تقدم

أكاديمية تأصيل الوعي

باقة من الدبلومات العلمية التأصيلية:

» فقه الخلاف والحوار والعمل المشترك
» فقه مقاصد الشريعة
» النظام السياسي الإسلامي

وقريباً دبلوم الأخلاق والتزكية والسلوك

www.islamicsham.org

islamicsham2 islamicsham